

قصة الخلق ..

منابع سفر التكوين

د. سيد القمني

قصة الخلق
أو
مناجيع سفر التكوين

سيد محمود القمني

الإهداء

لذكرى أبي

مفتّح

سفر التكوين هو قصة البداية

أو هو سفر الحكاية الأولى ..

أو هو رواية المجتمع الإنساني مذ كان تجمعاً، في البدء وكيف كان؟ إلى أن بلغت الرواية اكتمال نضجها مع قمة تطور السلطة في المجتمع الإنساني، وعندما يحدث التطور الجديد الآتي، فلن يكون ثمة حاجة للرواية، التي رفعت من زمن بعيد لعالم مفارق، كمرآة للواقع الأرضي.

فعندما كان المجتمع في الابتداء مشاعاً، كانت أرباب السماء في متعة الشيوخ تمرح ، وعندما تحول المجتمع الأرضي إلى مشتركات ترأسها مجامع ديمقراطية بدائية، أصبح للآلهة ذات المجامع ، لكن لتقرر للبشر على الأرض المصائر، وعندما تم تقسيم العمل على الأرض ، تحول مجتمع السماء إلى آلهة شغيلة ، وآلهة للتفكير والتدبير .

وعندما تمكن الإنسان من الابتكار وصنع جديد، لم يكن من قبل كائناً، تمكنت آلهة السماء من الخلق والتكوين ، وعندما تمركزت السلطة

على الأرض في يد ملك علي رأس دولة مركزية، وأصبحت كلمة الملك نافذة لا تقبل الإرجاء، قيل إنه في البدء كانت الكلمة. رغم أنه في البدء كان المشاع ، والفعل بلا كلام، فلم يكن ثمة لغة بعد.

وما كتابنا هذا إلا شرح لذلك.

وما كشوفنا فيه إلا ناتج قراءة غير مقلوبة لأوضاع مقلوبة، ورؤية غير معتادة لرؤى معتادة ، وربط للأرض بالسماء، وتسجيل لأثر الإنسان القدسي ووحيه الصاعد على معراج حركة المجتمع البشري.

وإذا وجد قارئنا في تلك المقدمة العجلى لغزاً، فما عليه إلا أن يشمر عن همته ليتابع معنا الحل في صفحات الكتاب.

الباب الأول

سفر التكوين السومري

تأسيس

يبدو أن بداية الألف الثالثة قبل الميلاد، كانت بداية لأهم أحداث المجتمع الإنساني، وأبعدها أثراً، في منطقة الشرق الأدنى بوجه خاص، تلك الأحداث التي تركت لنا تراثاً ضخماً، سجلته المدونات، حين بدأ اكتشاف الكتابة، حوالى ذلك الزمان، أو بعده بقليل.

فحوالى سنة ٢٩٠٠ ق.م، كانت مصر قد تحولت من مجموعة مشتركات إقليمية، إلى دولة مركزية موحدة، بينما كان الشعب السومري، قد قضى حوالى خمسة قرون قبل ذلك، يللم ذاته فى جنوبى وادى الرافدين الخصيب، حتى تمكن من تكوين مجموعة مشتركات مدينية، على هيئة مدن مستقلة، يشكل كل منها دولة قائمة بذاتها مع محاولات جادة للتوحيد، لم يكتب لها النجاح الأكيد، ومن ثم لم تقدر لها الاستمرارية، وإن استطاعت هذه المدن — إلى حد بعيد — أن تترك لنا تراثاً حضارياً ثرياً، يزخر بالقصص والملاحم والأدب الديني، يفسر نشأة الوجود كونياً وكائنياً.

وحوالى نفس الزمان، أو بعده بقليل، تدفقت على وادى الرافدين موجات بشرية مهاجرة، كانت ضمن بحر زاخر من دقات شعوب مرتحلة، انتشرت بسرعة قياسية على صفحة بادية الشام، وكل بلدان الهلال الخصيب

(الرافدين، سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن) إضافة إلى بادية الشام، واصطاح على تسمية هذه الهجرات (هجرات

الشعوب السامية)، وقد زعم كثير من الباحثين أن مصدرها جزيرة العرب، وبالتحديد جنوب الجزيرة، وإن كانت هناك اتجاهات بحثية أخرى لها وجاهتها، قدرت أماكن أخرى كمصدر لهذه الموجات البشرية المتدفقة على شرقى

المتوسط، تقصد أماكن الخصب والنماء.

ويلخص (حسن إبراهيم حسن) مختلف اتجاهات الباحثين حول مصدر هذه الهجرات، التي بدأت فى الألف

الثالثة قبل الميلاد - فيما يزعمون -، أو هو بالتحديد يلخص أهم الآراء فى أصل الشعوب السامية، فيقول:

«وقد اختلف المؤرخون فى موطن الساميين الأصلي، أهم من بلاد العرب؟ أم رحلوا إليها من أفريقيا (أصلاً؟) أم رحلوا إليها من بلاد الجزيرة؟.. فيقول أصحاب التوراة: إن مهد الإنسان فيما بين النهرين (الرافدين)، ومنه تفرقوا فى الأرض فاشتق من الساميين: الآشوريون والبابليون فى العراق، والآراميون فى الشام والفينيقيون على شواطئ سوريا، والعبرانيون فى فلسطين، والعرب فى جزيرة العرب، والأنثويبيون فى الحبشة، ومرجعهم فى إثبات ذلك إلى التوراة، ولا يقول هذا من علماء العصر إلا قليلون. ويرى بعض المستشرقين أن مهد الساميين فى أفريقيا، ونظراً لقرب بلاد الحبشة من بلاد العرب إقليمياً ولغة، قالوا: إن مهد الساميين الحبشة، ويرى

بعض آخرون أن مهد الساميين جزيرة العرب، ومنها تفرقوا فى الأرض كما تفرقوا فى صدر الإسلام، وذهبت طائفة أخرى إلى أن الساميين من جنوبى الفرات، ولكل من هؤلاء أدلة جغرافية أو اقتصادية أو جنسية أو لغوية، ويرى بعض المستشرقين أيضاً، أن مهد الساميين فى بادية الشام إلى نجد، ولم يقطع العلماء فى أصل مهد الساميين برأى حتى الآن»^(١).

المهم أن هؤلاء النازحين لم يضيعوا وقتاً طويلاً، حتى استطاعوا أن يقيموا لهم دولاً فى المنطقة، وتأتينا أهم هذه الشعوب التى أسست هذه الدول، ما بين الأكاديين AKADI الذين تمكنوا من التسلل البطيء إلى بلاد سومر الراقدية، ثم استولوا عليها ووحدها مدنها فى دولة مركزية، بقيادة زعيمهم (سرجون الأول - SHARRUKEN I)، حوالى عام ٢٤٥٠ ق.م، وبين الكنعانيين KANANI الذين تفرقوا فى الأرض الشامية حوالى ٢٥٠٠ ق.م، حيث أسسوا مجموعة حضارات متناثرة، حملت أسماء بطون كنعانية، هى فيما تزعم التوراة: المؤابيين، والآدميين، والعمونيين، والعموريين وقد استطاع البطن العمورى أو الأمورى فى وقت لاحق، أن يخلف

(١) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، القاهرة ١٩٦٤م، ج ١، ص ٨.

الدولة السومرية الحديثة التي خلفت الأكاديين في الرافدين، وأن يؤسس الدولة البابلية بينما ظهرت على ساحل المتوسط جماعات أخرى، سلكت سبيل تفوقها بالسيطرة الملاحية على البحر، في وقت متأخر من الألف الثاني قبل الميلاد، ويُرجح أنهم كانوا خليطاً من أجناس مختلفة، وإن غلب عليهم العنصر السامي الكنعاني، وهم من عرفهم التاريخ باسم الفينيقيين.

ويزعم المؤرخون، أنه قد تلت هذه الموجة الأولى من الهجرات – في وقت متأخر نسبياً – موجة أخرى كبرى، حوالي منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، هي هجرة الآراميين، الذين استقروا أول أمرهم في بادية الشام، ثم أخذوا بمنافسة بني جلدتهم الساميين على أراضي الخصب، سواء في الرافدين أو الشام، ردحا طويلاً من الزمان، فكانوا عامل اتصال وتواصل، بين سامي الرافدين وسامي الشام، ويُرجح أنهم تكونوا من عدة بطون من أصل واحد، باعدت بينهم الأزمان والكثرة العددية، ويزعم بعض المؤرخين أنه كان منهم الشعب العبري، الذي ظهر على صفحة التاريخ حوالي بداية القرن الثالث من الألف الثانية قبل الميلاد، بعد أن دخل مصر وخرج منها بقيادة النبي (موسى) حوالي عام ١٢٣٤ ق.م، بقصد الاستقرار في أراضي الكنعانيين، أرض فلسطين الحالية، وتمكنوا حوالي ١٠٠٠ ق.م، أن يقيموا لهم دولة، كان أشهر ملوكها شاؤول ثم داود فسلیمان، بينما ظلت بقية البطون الآرامية غير ذات شأن، حتى

استطاع بعضهم أن يثبتوا وجودهم مع اضمحلال الدول الكبرى في الرافدين فقاموا بغزو ناجح لجنوب الرافدين، أسسوا على إثره الدولة الكلدانية حوالي عام ٦٢٥ – ٥٣٨ ق.م.

وهكذا كانت المنطقة مسرحاً رحباً لهذه الدفقات البشرية، التي تكسرت موجاتها على بعضها في الهلال الخصيب، مما جعلها ميداناً لحروب مستمرة بين هؤلاء المهاجرين وبين من سبقهم وبين من لحقهم، مما أدى إلى تبادل الفكر والثقافة، لكنه أدى أيضاً إلى عدم استقرار دول هذه المنطقة مدداً طويلة، بعكس مصر، التي توحدت

أراضيها مبكراً، وظلت دولة واحدة متماسكة طوال عصور تاريخها الطويل، عدا بعض الانتكاسات الطارئة، وهي انتكاسات لا تقاس بعمرها الحضاري، حتى أن الزمن الذي استغرقه مجموع هذه النكسات، يكاد يعادل الزمن الذي استغرقته أي من دول الهلال الخصيب متماسكة.

ورغم أن الباحثين يقطعون بأن الشعب السومري الذي ظهر جنوبي الرافدين، قبل الهجرات السامية بحوالي خمسة قرون، أي حوالي ٣٥٠٠ ق.م، ليس من أصول سامية ورغم أن أصله لم يزل محوطاً بالغموض، فإن هؤلاء الباحثين قد تعارفوا على ابتداء العصور التاريخية شرقى المتوسط بالشعب السومري، بعد أن احتسبواهم الأصل والدافع الأول للحضارة العريقة التي قامت في بلاد الرافدين، وكانت في رأيهم المنبع الذي استقى منه الساميون

الغزاة حضارتهم وفكرهم ودينهم، حتى أن كثيراً من هؤلاء الباحثين قد اعتبروا الحضارة السومرية ذات تأثير مباشر وغير مباشر في ديانات شعوب شرقى المتوسط حتى العصور الهلينية^(٢). بل ويذهب هؤلاء إلى الزعم أن أهم المآثر الدينية السومرية، تعد حتى اليوم أهم الأعمدة، لأهم المآثر الدينية الحالية في منطقتنا، ناهيك عن لغتهم وطريقتهم التي ابتكروها والمعروفة بالكتابة المسمارية التي ظلت طوال العصور التالية لهم، حتى بعد زوالهم من تاريخ الدنيا، هي طريقة الكتابة المتبعة، والتي أخذها عنهم الغزاة من المهاجرين الساميين، ليسجلوا بها مآثرهم الحضارية، مما ساعد على انتشار أصرح للمآثر السومرية بين الشعوب السامية أما الساميون الذين تسيدوا المنطقة بعد غروب النجم السومري، فكانوا جميعاً من أصل واحد، وجنس واحد، بجملة عادات وتقاليد واحدة، مما سهل حمل الأفكار والمعتقدات فكانت اللغة السامية وسيلة اتصال جيدة (رغم تشعبها إلى لغات متعددة عبر تباعد اللهجات بتباعد الأمكنة والأزمنة)، بينما ظلت طريقة الكتابة المسمارية وسيلة توصيل دائمة الجودة.

(٢) جان بوتيرو: الديانة عند البابليين، ترجمة وليد الجادر، نشر جامعة بغداد، ١٩٧٠، ص ٢٦.

وسعيًا وراء ذوى التخصص، ولو مؤقتاً، ونظراً لما لدينا من

تحفظات سنطرحها فى حينها، فسنبداً عملنا للكشف عن منابع سفر التكوين، بدراسة ما رآه الباحثون تراثاً أعرق وأقدم فى المنطقة، أقصد المنابع السومرية.

* * *

المجتمع:

حاول الباحثون باستمرار — وهم فى أغلبهم غربيون — أن يلقوا فى روعنا أن أى محاولات لاستطلاع أمر الرافدين قبل السومريين، هى محاولات عقيمة لن تصل أبداً إلى يقين، لأنه رغم أن الإنسان استوطن جنوبى وادى الرافدين قبل ما يزيد عن خمسة آلاف عام من الميلاد بزمان طويل^(٣)، فإننا لا نعرف إلا القليل النادر عن هؤلاء السكان، لعدم وجود مدونات خطية، فلم تكن الكتابة اختراعاً معروفاً بعد، وكل ما نعلمه أنه كان هناك مستوطنون فى المنطقة قبل السومريين، كان أشهرهم ما أطلق عليه اصطلاحاً (عصر العبيد)، نسبة إلى المكان الذى عثر فيه على آثارهم ويسمى الآن تل عبيد، وانتهى أمرهم بالانقراض مع الفيضان العاتى لدجلة والفرات المعروف فى الملاحم الدينية بالطوفان.

ورغم أن هؤلاء الباحثين يندفعون فى أغلبهم إلى اعتبار هذه الفترة السابقة على السومريين، فترة حضارة سومرية أيضاً، فإن باحثاً شهيراً فى الأثرىات السومرية هو (صموئيل نوح كرىمر)، يذهب إلى أن حضارة السومريين إنما كانت ناتج تلاقح واضح بين شعب العبيد، المرجح عند (كرىمر) أنه سامى الأصل، وبين الشعب

^(٣)جوردون تشايلد: التطور الاجتماعى، ترجمة لطفى فهم، مؤسسة كل العرب، القاهرة، ١٩٦٦، ص ١٨٠.

السومري الذين هم في رأيه الوافدون الأعراب عن المنطقة، ثم يعقب بقوله: إنه «نتيجة للإخصاب المتبادل، ظهرت إلى الوجود أول مدنية راقية نسبياً في بلاد سومر^(٤)»، هذا مع أخذنا بالحسبان تأكيد (لويد Loide) أن السومريين لم يصلوا إلى جنوب الرافدين، إلا حوالي منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد^(٥).

لكننا — رغم إشارات باحث مثل كريمر — سنظل الآن مع الرأي الغالب، فنبدأ دراستنا مع السومريين، بحسبانهم لدى الباحثين في مجملهم بداية وأصل الحضارة في شرق المتوسط.

ومع بداية الألف الثالثة قبل الميلاد، يمكننا أن نرسم صورة — غير دقيقة المعالم تماماً — للمجتمع السومري، الذي شكل حضارة زراعية في هذه المنطقة النهرية الخصبة، في شكل مشتركات قروية في البداية، ولم تكن التجارة والنقود متطورتين بشكل واضح — فيما يخبرنا به شيسنو^(٦)، أما الملكية فقد أخذت شكل الحيازة الفردية ضمن المجموع، المالك الحقيقي، بحيث أن ما كان يخص الفرد، إنما كان ضمن المشترك بوصفه عضواً متحداً به^(٧)، بل ويعلمنا (فرانكفورت Frankfort) أن كل شيء كان ملكية جماعية، حتى أدوات الفلاحة والبهائم^(٨). ومع مرور الزمن، في بيئة طبيعية متقلبة لا تعرف الاستقرار، وإزاء العواصف غير المتوقعة، والفيضانات المفاجئة ارتبط هؤلاء

بقوى غير منظورة، ربطوها بظواهر الطبيعة، وتمثلوها فيها، وعبدها رغبة ورهبة، واستشعروا إزاءها

(٤) صموئيل نوح كريمر: السومريون تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم، ترجمة د. فيصل الوائلي، وكالة المطبوعات، الكويت، د.ت، ص ٥٦.

(٥) سيتون لويد: آثار بلاد الرافدين، ترجمة د. سامي سعيد الأحمد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠، ص ٧٠.
Edition sociales. Paris, ١٩٦٩, p. ٢٩.

(٦) موريس غود ولييه: (ضمن كتاب: حول نمط الإنتاج الآسيوي، مع جان سوريه وآخرين، ترجمة جورج طرابيشي، دار الحقيقة، ١٩٧٢، ص ٧٥).

(٧) Frankfort (Henri): La Royaute et les dieux, Paiot, Paris, ١٩٥١, p. ٢٦٩.

التبعية التامة، لكن يبدو أن ذلك لم يكن بحد ذاته كافياً لجلب النافع من الطبيعة، أو على الأقل لدرء غضبها وكوارثها، ومن هنا احتاجت الأمور إلى تكاتف القوى البشرية مع القوى الإلهية، عن طريق وسيط بشري، يتسم بمواصفات رأوها آنذاك علامات لصلة جيدة بالآلهة، فكان هذا الوسيط هو الوساطة الناجعة مع الآلهة، فكان ذلك هو الشكل الرئاسي البدائي لإدارة شئون الجماعة، بقصد تقليل أخطار الطبيعة وجلب نفعها، عن طريق إدارة شئون العمل البشري الفعلي المتكاتف، في تنظيم أمور الري والزراعة، والتخفيف من نتائج الكوارث وتنظيم القدرات في مواجهتها، وفي الوقت نفسه يتم ذلك بعلاقة الوسيط مع الآلهة، التي توحى له بأفضل السبل لتوقى أخطار كانت هي اليد الفاعلة فيها؟!.

ومن ثم تقاربت الجماعات لتشكل مجتمعاً متحداً إزاء الطبيعة، وتخضع لهيئة إدارية من المتصلين بالآلهة، لتمثيل المشترك أمامها، وقد كون هؤلاء فئة متميزة وجهازاً متراتباً، يعلوه شخص كفاء، كحاكم مفوض من قبل المشترك، ومسئول أول أمام أعضاء المشترك وأمام الآلهة في آن واحد.

ويبدو أن الأمر قد بدأ بنوع من التفويض المؤقت لفرد (أصبح يختار له معاونين فيما بعد) من قبل أفراد المشترك جميعاً، والذين كانوا يشكلون مجتمعاً ديمقراطياً بدائياً، يمكن تصوره على هيئة مجلس عام. ويؤكد لنا (هنري فرانكفورت H. Frankfort) أنه عندما ظهرت الكتابة، وجدنا إشارات لمجلسين هما: المجلس العام ومجلس الكبار^(١)، ومن ثم تفرغ هذا الفرد ومعاونوه من العمل البدائي، وركزوا جهودهم الذهنية في التعامل مع الآلهة وقدراتها الطبيعية، بمحاولة قراءة هذه القدرات الظاهرة والتنبؤ المستطاع بفعالها المستقبلية للمحافظة على نظم الري، وتلافي أو مواجهة مشاكل قد تنتج عن تقلب المزاج الإلهي في الطبيعة، أو لمواجهة حروب طارئة مع مشتركات مجاورة تحتاج إلى نشاط سريع وحاسم.

^(١)Frankfort (Henri): The Birth of Civilisation in the Near East, Wiliams and Norgate Limited, Great Britain, ١٩٥١, p.٢٩٠.

ومع استمرار الطوارئ، تحولت الحاجة لهذه الإدارة من حاجة مؤقتة طارئة إلى حاجة دائمة مستمرة، مما أدى إلى ديمومة سلطة الوسيط ومعاونه فتحول بالتدريج إلى كاهن وحاكم كبير، كما تحول المشترك القروي بذلك إلى مشترك معبدي، يضم مجموعة مشتركات قروية، لتظهر إلى الوجود دولة المدينة، التي تخضع كلياً لإله المدينة الأعظم، وبالتالي لنائبه ووسيطه الأرضي، حتى عدّ هذا الإله سيداً

إقطاعياً متغيباً (لبعض شئونه)، لكنه كان يثبت حضوره باستمرار بما يطلبه من إنتاج أعضاء المشترك المعبدي، من قرايين ونذور وتضحيات وهبات، أدى تراكمها إلى زيادة قدرات الكاهن الحاكم الوسيط، وبدأ يتحول بما يملك من مواد متراكمة وأحياناً نادرة، إلى ملك مطلق النفوذ.

وبمرور الزمن، أخذ الملك يتفرغ للعمل الإداري والسياسي، لمواجهة المشتركات الأخرى التي تحولت بدورها إلى ممالك، تاركاً مهمة الاتصال بالآلهة لأتباع فوضهم عنه لهذا الغرض، ليصبحوا وسطاء يعقدون معها المحادثات، ويتلقون توجيهاتها ويسكنون ثائرتها، ويبلغونها برغبات عبّادها، ومن هنا بدأت تظهر ثلاث طبقات متميزة، هي الطبقة الإدارية أو البيروقراطية ممثلة في الجهاز الإداري الحكومي وعلى رأسه الملك وحاشيته ومعاونوه ورجال جيشه، وطبقة الكهنة، وباقي جماهير الشعب التي تشكل الطبقة الثالثة في الدولة.

وقد وجد الكهنة بالذات سبيلاً سريعاً للإثراء، من خلال إمساكهم بعنان المزاج الإلهي إن رضاً أو غضباً، مما أدى أحياناً إلى اصطدام الكهنة بالملك، مما كان يضطر الملك إلى خلع الإله المزعج، وإعلان نفسه إلهاً، بانقلاب سلمى يمسه بزمام الكهنة، وحينها كان نظام حكم المدينة يتحول إلى الشكل الاستبدادي المطلق.

لكن يبدو أن جدل التطور قد توقف بالسومريين عند حدود المدينة، فتحدت ملامح حضارتهم بحدود الدولة المدنية، ومن ثم اتسمت هذه الحضارة بخاصية المدن المستقلة، التي لم تعرف الوحدة الشاملة، إلا على يد الغزاة

الساميين اللذين أقاموا الدولة الأكادية، إلا أن نظام المدن المستقلة السومري، لم يوقف عملية التطور الداخلى لكل مدينة على حدة، فاستمرت عملية النمو الحضارى لكل مدينة تسير فى طريقها قدماً، مع تبادل الفكر والثقافة وأهم المآثر الدينية، وكافة الأساليب الحضارية المتيسرة لها، فيما بينها، وهو ما يعقب عليه (عبد العزيز صالح) بقوله:

وهكذا قطع السومريون أكثر من خمسة قرون من بداية عصر الأسرات العراقى، غابت فيها الوحدة السياسية الكاملة عن آفاقهم.. وذلك على الرغم من أن أهلها فى مجموعهم، كانوا يحسون تلقائياً بوحدة جنسهم... ويحسون بتقارب مذاهبهم الدينية التى شجعتهم على أن يتمثلوا أربابهم فى بعض آخرو تخيلوا صفات بعضها لبعض آخر^(١٠).

ثم يحاول (نجيب ميخائيل) تعليل عدم قيام وحدة سياسية سومرية مركزية كبرى، وهو الأمر الذى أنجزته مصر مبكراً بقوله:

إن الحياة فى وادى الرافدين.. كانت تختلف اختلافاً بيناً عنها فى وادى النيل، فوادى الرافدين أقل دعفاً للوحدة السياسية، ومن ثم كانت هناك الدول المدن التى تأخر توحيدها، وإن لم يقم ذلك دون تطورها، والعراق القديم كان مفتوحاً، بينما كانت مصر مغلقة، أسهم وجود الصحراء على جانبى واديهما فى صيانة كيانهما وردّ كثير من الهجمات حتى استطاعت أن تغلق فى كثير من الأحيان أبوابها، دون الطامحين فيها، أما مجاورات العراق القديم، فأراض خصبة، استطاعت أن تأوى إليها شعوب تهددها، وتعرض أراضيها للعدوان، الذى كان يؤثر على ركب الحضارة، فيعطله أو ينال منه^(١١).

(١٠) د. عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، الهيئة المصرية العامة لشنون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٦٧، ج١، ص٤٠١.
(١١) د. نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم، حضارة العراق القديم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١، ج٦، ص٤.

ومع ذلك فيبدو أن السومريين قد استشعروا نوعاً من الوحدة

القومية بينهم رغم الفرقة السياسية، وهو ما يمكن أخذه من تأكيد الآثاريين:

إنه ليس هناك شك بأن السومريين كانوا يعتبرون أنفسهم من صنف الشعب المختار.. فى أسطورة أنكى ونظام العالم، التى تعالج موضوع خلق أنكى للذاتيات الطبيعية والحضارية والعمليات الضرورية للمجتمع المتمدن وتنظيمها، نجده يبارك بلاد سومر بكلمات رفيعة،تكشف أن السومريين يعتقدون بأنفسهم كمجتمع، أو بالأحرى مجتمع مميز ومقدس، متصل بالآلهة اتصالاً أقوى من اتصال بقية البشر بها، بشكل عام^(١٢).

بل إنه رغم اعتراف المهتمين بالحضارة السومرية، أن السومريين مجموعة غريبة على المنطقة، فإنهم يزعمونهم أصحاب ثقافة قدر لها السيادة على جميع أجزاء الشرق الأدنى، فيقول (كريمير Kramer): «ونتجلى هذه السيادة الثقافية فى عدة اتجاهات:

١- أن السومريين هم الذين طوروا، ومن المحتمل أنهم قد

ابتكروا، طريقة الكتابة المسمارية، التى اقتبستها جميع شعوب الشرق الأدنى على وجه التقريب.

٢- طور السومريون المفاهيم الدينية والروحية، كما أدمجوا مجموعة الآلهة المختلفة على نحو رائع، فكان لهذا الدمج أثره العميق على شعوب الشرق الأدنى، وبضمنهم العبرانيون والإغريق، إضافة إلى نفاذ الشيء الكثير من هذه المفاهيم الروحية والدينية إلى عالمنا المتمدن، عن طريق الأديان السماوية»^(١٣).

ويكمن ذلك عند (كريمير Kramer) فى أنه قد «طور السومريون خلال الألف الثالث قبل الميلاد، أفكاراً دينية

(١٢) كريمير: السومريون... سبق ذكره، ص ٤١٢.

(١٣) كريمير: الأساطير السومرية، ترجمة يوسف داود عبد القادر، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦١، ص ١٩.

ومفاهيم روحية، تركت في العالم الحديث أثراً لا يمكن محوه، خاصة ما وصل منها عن طريق الديانات: اليهودية والمسيحية والإسلام، فعلى المستوى العقلي، استنبط المفكرون والحكماء السومريون، كنتيجة لتأملاتهم في أصل الكون وطبيعته وطريقة عمله، نظرية كونية، وأخرى لاهوتية، كانتا تتطويان على إيمان راسخ وقوى بحيث أنهما أصبحتا العقيدة والمبدأ الأساسيين، في أغلب أقطار الشرق الأدنى القديم، وعلى المستوى العملي والوظيفي، طور الكهنة ورجال الدين السومريون مجموعة من الطقوس والشعائر والاحتفالات، الغنية بالألوان والتنوع، التي كانت

تؤدي لغرض إرضاء الآلهة وتهديئتهم، بالإضافة إلى ما فيها من إشباع عاطفي، لحب الإنسان للمهرجانات والمشاهد الضخمة»^(١٤).

* * *

الآلهة:

وأهم ما يمكن احتسابه للفكر الديني السومري في رأينا، أنه استطاع — مبكراً — أن يفصل بين الآلهة وبين أشكالها الطوطمية، فغلب على نقوش الآلهة الهيئة الإنسانية، بينما احتفظت الذاكرة بالأصل الطوطمي كرمز ينقش قابعا إلى جوار الإله، أو يحمله الإله بين يديه، أو يرسم على ثوبه، بعكس المصريين الذين لم يتحرروا تماماً من الأصول الطوطمية للآلهة، فجسموا الإله في الشكل آدمي مع الاحتفاظ بالرأس الحيواني الأصلي، ويبدو لنا ذلك ناتجاً عن الفارق الطبوغرافي بين المنطقتين، حيث كانت مصر مغلقة الحدود، متجانسة التكوين جنسياً وفكرياً إلى حد بعيد، بينما كانت الرافدين بلاداً مفتوحة، تلاحقت فيها أجناس وثقافات متعددة، أدت في أحيان

^(١٤) كريمر: السومريون...، سبق ذكره، ص ٤١٢.

كثيرة إلى نوع من التجريد المطرد، أدى إلى سلخ الآلهة من جذورها البدائية، وهي ظاهرة نلاحظها أيضاً فى تطويرهم الكتابة إلى

نوع من الخط المجرد، ابتعد بسرعة عن أصله التصويري، بينما ظل الأصل التصويرى فى الكتابة غالباً فترة طويلة على الكتابات الهيروغليفية فى مصر، ولم يتحرر المصريون منه بشكل واضح إلا بعد احتكاكهم بالشعوب الأخرى، وبعد غزوات متعددة لأراضيهم فى نهاية الإمبراطورية المصرية، وسقوط الدولة الحديثة، مما أدى بالهيروغليفية إلى التحرر من التصوير والتحول إلى التخطيط لتتطور إلى (هيراطيقية، ديموطيقية، قبطية) ولاشك لدينا أن هذا الميل إلى التجريد، قد صار خاصية لشعوب شرقى المتوسط الأدنى عموماً، لتشابه الظروف البيئية، وكان دافعاً فيما بعد إلى ظهور الفلاسفة اليونانية، التى هى امتداد طبيعى لفكر المنطقة وتعد فى المقام الأول فكراً (أيونياً) مشرقياً، ومن خلال التفوق الفينيقى التجارى والبحرى وما نتج عنه من احتكاك اجتماعى، فى الألف الأولى قبل الميلاد.

ومع ذلك فقد استمرت التعددية المفرطة هى سمة الديانة السومرية، حتى أمسى للفأس إله، ولقالب الأجر إله، وللمسمار إله، ولكل فرد إله خاص به يحميه وفق طموحاته الشخصية، يحابى فيه نزعاته وطموحاته وميوله، إضافة إلى افتراض رب أو ربة لكل ظاهرة طبيعية، كبر شأنها أو صغر، كما افترضوا لأربابهم صوراً بشرية ضخمة، وحياة تماثل حياة البشر، تزوجوا فيها وتناسلوا وتحابوا وتخاصموا وتقاتلوا، لكنها كانت حياة سرمدية ذات قدرات مطلقة.

أما عندما يكون وجود هذه الآلهة ضرورياً فى ذاتيات الكون الموكلة بها، فإنها كانت تعيش فى (جبل

السماء والأرض)^(١٥)، وإنى أتصور ذلك نوعاً من الفصل بين آلهة عاملة (شغيلة) مرتبطة باستمرار بالظواهر الطبيعية مطردة الحدوث، ودائمة التأثير المباشر فى حياة الإنسان السومري، وبين آلهة متفرغة للعمل الذهني النظرى ولالإدارة فى جبل السماء والأرض، ويحتمل أنها كانت الآلهة الكبرى، والظن عندى أن ذلك راجع إلى ظهور الكهنة المفوضين للإدارة فى المشتركات الأولى، التى تحولت إلى مشتركات قروية ثم معبدية، مما طبع شكل المجتمع الإلهي، بما وصلت إليه أحوال المجتمع السومري اقتصادياً وسياسياً، وكما تفرغ الكهان من العمل البدنى للإدارة، فقد تفرغ مجموعة من الآلهة وتحرروا من العمل الملاصق لعمل الطبيعة الدائم وهو ما تدل عليه أسماء هذه الآلهة، الذين شكلوا مجاميع إلهية أشهرها:

□ مجمع الآلهة مقررة المصائر، وعددهم سبعة.

□ مجمع الآلهة العظام، وعددهم خمسون إلهاً^(١٦).

وفوق هذه الآلهة جميعاً، كانت عناصر الكون الكبرى، ذات التواجد الدائم الثابت (السماء، الأرض، الهواء، الماء)، آلهة لها خصوصيتها المتميزة باستمرار التواجد المنظور، إزاء الآلهة الأخرى متغيرة الأحوال، التى لا تتسم بديمومة التواجد، ونذهب إلى أن ملاحظة السومري المستمرة لجدل التأثير المتبادل بين الظواهر الأربع الثابتة، فى إنتاج الحياة، وضرورة استمرار هذا الجدل لضمان استمرار الحياة، كما لو كانت مهمتها الإشراف على هذه الاستمرارية وتتابعها. أقول: إن هذه الملاحظات قد سوغت للسومري المتأمل، الاعتقاد أن هذه الظواهر الأربع إنما هى أربع من الآلهة، تكاتفت معاً لتقوم بخلق بقية كائنات الوجود، ومن ثم أطلق عليها (الآلهة الخالقة)، وهى:

(١٥) كريمر: السومريون..، سبق ذكره، ص ١٥٥.

(١٦) كريمر: من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، مكتبة المثنى بغداد، ومؤسسة الخانجي بالقاهرة، ١٩٧١، ص ١٥٥.

◆ أن AN الإله السماء.

◆ كى KI أو (جى) GI الإلهة الأرض زوجة إله السماء.

◆ آنليل AN-LIL الإله الهواء ابن إلهي السماء والأرض.

◆ آنكى AN-KI الإله الماء.

ويرجح (كريم) أن تكون هذه الآلهة الأربع هي الأعضاء الكبرى في مجتمع السبع مقررة المصائر،

ويكون بقية هذا المجمع إذن هم الآلهة:

◆ نانا NANA الإله القمر.

◆ أوتو UTO الإله الشمس وهو ابن الإله القمر.

◆ اينانا ENANA إلهة كوكب الزهرة^(١٧).

وإن كان موسكاتي يجعل من هذه الثلاث الأخيرة أسرة إلهية مثلثة تضم: الأب القمر والأم الزهرة والابن

الشمس^(١٨).

وهكذا تكون مجمع الآلهة السبع مقررة المصائر، من أسرتين ثالوثيتين كل منهما يشتمل على ثالوث (أب وأم

وابن)، فشكلًا معاً ستة من الآلهة، بينما ظل سابعهم (آنكى - الماء) حالة شاذة وسط هذا المجمع، باعتباره ليس

عضواً في أى من الأسرتين الثالوثيتين، وإن كان يكمل الأسرة الأولى لتصبح أربعاً من الآلهة الخالقة، وهو أمر

حيرنا من البداية، لكنها حيرة أثمرت عن كشف هام، يعد واحداً من أعمدة هذا القسم من بحثنا.

^(١٧) كريم: السومريون... سبق ذكره، ص ١٦٣.

^(١٨) سبتيو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ترجمة د. السيد يعقوب بكر، دار الكتاب العربي للطباعة، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٧٥.

وحتى نتمكن من الوصول بقارئنا إلى الكشف المأمول، نقف أولاً مع الآلهة الأربع وقفة تفصيلية بعض

الشيء، نستقى أخبارها

من المصادر، فتطالعنا بأن:

١- أن AN: هو إله ذكر، وهو إله السماء، والكلمة (آن) تعنى أيضاً السماء المنظورة ذاتها، وكانت فى رؤيتهم سقفاً يعلوهم، ثم أصبحت (آن) بالتدرج علماً ورمزاً على الألوهية عموماً، فعادلت - بمعنى من المعانى - اسماً للجلالة، تدل على ألوهية أى مسمى إلهى وبذلك حملت معنى السيادة والرفعة والسمو، لذلك كان (آن) سيد الآلهة جميعاً، باعتباره فى نظرهم كان الأب الأول لكل الآلهة وسيد الآلهة السبع مقررة المصائر^(١٩).

ويقول (كريم): إن الأسباب التى أدت إلى تَسَيُّدِ (آن) مجموعة الآلهة السومرية، أسباب غير معروفة^(٢٠) لكننا نتصور وببساطة أن رؤية الرافدى القديم للسماء بفسحتها واتساعها، وتعدد الألوان والأحداث والظواهر فيها مع ضخامة هذه الظواهر، وجسامة هذه الأحداث، ومطرها الذى يشكل للأرض مَنَى الحياة، ثم إحاطة السماء للأرض فى الأفق، وتغطيتها من جميع جوانبها، كل ذلك كان كفيلاً بتصورها بما يلائم عظمة اتساعها ورحابتها وتعدد الإمكانات فيها، مقابل ضيق المساحات المرئية أمامه بشكل مباشر على الأرض، التى مهما بلغت مظاهرها هولاً وغرابة، فإنها لم ترقَ أبداً فى نظره إلى درجة ظواهر السماء، مع أخذنا بالحسبان عدم التماس المباشر بينه وبين السماء، مما جعلها مجهولاً دائماً يقع فى نفسه موقع الجليل، بما له من هبة ورغبة واحترام وتقديس، فكان أن تصور السماء أعظم الآلهة، وأباً أولاً دائم الاقتدار، بتواصل وديمومة مستمرة، يخصب الأم

(١٩) د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص ١٠٣، انظر أيضاً جان بوتيرو: سبق ذكره، ص ٣٦، وكريم: السومريون... سبق ذكره، ص ١٥٧، ود. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت، ص ١٤٣.
(٢٠) كريم: من الواج.. سبق ذكره، ص ١٧٢.

الكبرى (كى KI) الأرض، وهو يحتضنها ليلقى في أحشائها بدفقات ماء الحياة، ومن هنا ظلت السماء (آن)، وظل الإله (آن) يقع في الوهم الإنساني – حتى اليوم – موقعه القديم، فنحدث عن الإله مجازاً فنقول: السماء، أو نتصوره قابلاً على عرش في بيت إلهي في السماء، أو نفعل فنقسم أغلظ الأيمان بحق السماء! ولا يبقى عن (آن) الآن، سوى ترجيحنا أن يكون هو نموذج الأب الأول في مشترك العشيرة البدائي.

٢- كى KI أو جى GI: وهى إلهة أنثى هى الأرض تعددت أسماؤها وشخصها واحد، فهى كزوجة للسماء الذكر (آن AN) تسمى (أنثوم AN-TUM)^(٢١) مؤنث الكلمة (آن AN) وهى أيضاً (نينماه أو

نينما ماه NIN-MAH)^(٢٢)، والاسم (نينماه) يشير إلى مدلول هذه المعبودة في الذهن السومري، فهو مركب من ملصقين: (نين NIN) بمعنى السيدة أو العظمى، أو السيدة العظمى. ولازلنا ننادى الأم، والأم الكبرى (الجدة) باللفظ (نينما)، والملصق الثانى (ماه MAH) أى الأم، وتصبح الترجمة: السيدة الأم، أو الأم العظمى أو الأم الكبرى، كما عرفت (كى) أيضاً باسم (نينتو NINTO)^(٢٣) وهو اسم يحمل أيضاً معنى الأمومة، لأن (نن = السيدة + تو = تلد) أى السيدة التى تلد، أو السيدة الوالدة، أو إجازاً: الوالدة. كما سميت أيضاً (أرش ARSH) بمعنى أرض، كما حازت على الألقاب (مامى MAMY) و(ماما MAMA) و(ما MAH)^(٢٤)، وكلها تحوى (ميم) الأمومة.

وقد شكلت (كى) مع (آن) فكرة ابتدائية عن نشأة الحياة على الأرض أو ما يمكن اعتباره سفيراً بدئياً للتكوين، صادقاً صدق بدائيته، مطابقاً لراسب خبرات الإنسان، وملاحظاته، عن دور مطر السماء أو منى (آن) وفعله في الأم الأرض لتنتج الحياة، لكن هذا

(٢١) بوتيرو: سبق ذكره، ص ٣٦.

(٢٢) كريم: من ألواح.. سبق ذكره، ص ١٨٣، انظر أيضاً فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٤٦، ٢٤٧.

(٢٣) كريم: من ألواح.. سبق ذكره، ص ١٨٣.

(٢٤) د. فاضل عبد الواحد: الطوفان في المراجع المسماوية، أرفست الإخلاص، بغداد، ١٩٧٥، ص ٥٤.

السفر يقف عند هذا الحد عندما يبدأ الخيال الإنسانى يتدخل فى صناعة الفكرة، لياخذ التكوين خطأ آخر أكثر تعقيداً من بساطة الحقيقة.

٣ — أنليل ANLIL: وهو إله ذكر، هو إله الهواء وهو الضلع الثالث، فى ثالث: الأب فيه آن والأم كى والابن أنليل، وعنه يقول (جان بوتيرو):

«أنليل يعنى باللغة السومرية، سيد الريح والعاصفة ومجال عمل أنليل هو الأرض، فهو الذى يسيّر البشر... وقد لُقّب السيد^(٢٥) ولنلاحظ أن الاسم (أنليل) مركب من (آن = سيد أو إله أو رب + ليل وهى مادة ما بين السماء والأرض من هواء ورياح وسحب)، ويقول (نجيب ميخائيل):... «إن كلمة آن ليل تعنى أصلاً سيد الريح والروح، وهو لم يأخذ لقب سيد الأرض إلا فيما بعد.. ومعبده هو (بيت الجبل E-KUR)^(٢٦)، ويقول (عبد الحميد زايد) أن أنليل هو سيد ما بين السماء والأرض، فهو إله الهواء وما يتعلق به، كما لقب أيضا بأبى الآلهة.. كما يقود أنليل الآلهة إلى الحرب، فهو يمثل القوة والبطش، فكان آن يرأس الاجتماعات فى مجمع الآلهة وكانت وظيفة

أنليل تنفيذ أحكام هذا المجمع، فآن وأنليل هما العنصران الرئيسيان، وكانت وظيفة أنليل تنفيذ أحكام هذا المجمع، فآن وأنليل هما العنصران الرئيسيان فى الدولة، هما السلطة التشريعية والتنفيذية،.. وقد عُهد إلى أنليل بالمحافظة على ألواح القدر^(٢٧)، ومن ألقابه «سيد جميع البلدان، أبو جميع الآلهة، مقرر المصائر، الذى لا رجعة لقراراته، الذى يمتلك ألواح القدر الذى فصل أباه السماء عن أمه الأرض، خالق الفأس أداة العمل، الجبل العظيم، هذا وكان مقر عبادته فى مدينة نفر، وكان هنالك تقليد سنوي، تذهب فيه بقية آلهة المدن لطلب الرحمة والبركة

(٢٥) بوتيرو: سبق ذكره، ص ٣٧.

(٢٦) د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص ١١٧، ١١٥.

(٢٧) د. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد.. سبق ذكره، ص ١٤٤.

من أنليل لحكام مدن هذه الآلهة، وهو الإله الوحيد الذي اغتصب أثناء نليل، فأنجبت منه القمر نانا»^(٢٨)، مع ملاحظة هامة هي أن رمزه التصويرى كان ذات رمز إله السماء آن.

ويقول (كريم) إنه «.. يوجد فى أقدم التصانيف السومرية المنشورة عدد كبير من القطع الأدبية التى نطلق عليها اسم المراثى، نرى فيها الإله (أنليل) يقوم بذلك العمل البغيض، وهو القيام بإحداث الدمار وتنفيذ الكوارث والبلايا، التى كانت تأمر بها الآلهة لسبب من الأسباب، وهذا هو السبب فى وصم أنليل بأنه إله شرس مدمر فى كتابات الباحثين القدماء فى الشؤون السومرية، ولكن الحقيقة هى أننا لو حللنا التراتيل والأساطير لاسيما ما نشر منها منذ عام ١٩٣٠، لأفينا الإله أنليل وقد مجده بصفته إلهاً رحيماً، يتحلى بالحنو الأبوى، ويعنى بسلامة جميع البشر وخيرهم»^(٢٩).

وبالاجتهاد يمكننا فهم هذا التضارب فى شخصية أنليل ويمكننا تفسير استطاعته إزاحة أبيه (آن) ليتحول إلى رمز مسلوب السلطان، وهو أمر شائع فى الميثولوجيا الشرقية عموماً، فى قصة الابن الذى يتفوق على أبيه ويسلبه سلطانه، وهو ما يبدو لنا صدقاً طبيعياً لواقع أحوال الإنسان البدائى قبل استقراره وتحضره، حيث كان الأب القوى يظل سيداً أو حامياً للقطيع حائزاً لكل الإناث، حتى يظهر من بنيه ذكر قوى ينافسه السيادة وحياسة الإناث، فينازعه سلطانه ويدعوه للنزال، فى وقت يكون فيه لعامل السن دوره، فى إزاحة الأب الكهل، ليحل الابن الشاب القوى محله فى سيادة القطيع والذود عنه، ويتحول هو إلى أب جديد للقطيع، لكن هذه السيادة الأبوية البدئية، بدأت تفقد سلطانها مبكراً مع التطور الاجتماعى، عندما أصبحت السيادة تحتاج إلى مقومات أكثر من مجرد الأبوة، أو

(٢٨) د. فوزي رشيد: الديانة، المعتقدات الدينية، (ضمن سلسلة كتب تاريخ العراق مع آخرين)، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٥، ج١، ص ١٥٤، ١٥٢.
(٢٩) كريم: من ألواح.. سبق ذكره، ص ١٧٣.

القوة الجسدية واستدعت وجود كفايات متعددة في سيد العشيرة، المفوض من مجموعة عشائر مؤلفة من مشترك بدائي، مما أدى إلى ضرورة التحول نحو قانون جديد، فرضته ظروف التجمع الأكبر حيث ساد مجموعة من رؤساء العشائر الآباء، تحول أحدهم إلى أب مفوض للمجموعة العشائرية المتحدة في مشترك قروى ثم معبدى ليكون همزة الوصل بين الأب القديم الذى تحول إلى إله غائب، وبين أفراد المشترك، أو بين الآلهة عموماً وبين الناس، فى شكل كاهن رئيس، متحرر النفوذ من أسر مجلس القبيلة العام.

أقول: عندما فقد الأب البدائي سلطانه فى المجتمع الأكبر، انعكس ذلك على عالم الآلهة، ففقد إله السماء سلطانه الأبوي، المتصف فى الأساطير بالحنو البالغ والشفقة، وظهر ولده أنليل، وقد حدث ذلك على ما يبدو بالتدرج البطيء الذى حدث به فى عالم البشر، حتى صار (أن) مجرد شخصية هلامية مبهمه غامضة فى مجمع الآلهة، وإن ظل محتفظاً باحترامه كأب أول خالق، لكن مسلوب السلطات.

وكما تحول الأب المفوض فى المجلس العام بالمشارك البدائي إلى حاكم متحرر النفوذ، تحول أنليل بمفهوم الألوهية من الرحمة إلى الشراسة، يمتلك أقدار الناس وأقواتهم (الذى يمتلك ألواح القدر)، ويتفرغ للعمل الذهني لتطوير أدوات الإنتاج (خلق الفأس أداة العمل)، وينظم أعمال الناس (يسير البشر)، ويقود الجيوش (يقود

أنليل الآلهة إلى الحرب)، لذلك أصبح (سيد جميع البلدان)، وتوجب (أن تذهب إليه بقية الآلهة لطلب الرحمة) باعتبار الحاكم الذى يمثل أنليل مفوضاً من جميع العشائر المتحدة وسيداً متحرر النفوذ محل الأب البدائي، وهو ما ترك أثره فى تصويره الرمزي، بنفس رمز الأب أن.

٤ _ أنكى ANKI أو آنجى ANGI: وهو إله ذكر، يتركب اسمه من ملصقين (آن = السماء + كى = الأرض)، أى (السماء والأرض)، وبترجمة بعض الباحثين (السيد الأرض) باعتبار (آن) تعنى السيادة والجلالة أيضاً، فهو

بذلك إله الأرض، لكن هذا يتضارب مع حقيقة ميثولوجية متواترة في ميثولوجيا البلدان الزراعية، حيث اعتبرت الأرض دوماً إلهة أنثى كمصدر للحياة، كما يتضارب مع حقيقة أخرى هي أن أنكى كان يعد لدى السومريين إلهاً للماء وكان بهذه الصفة إلهاً ذكراً، حيث كان سكان المناطق الخصبة ينظرون إلى الماء كمنى للأرض، وسائل يخصب الأنثى الأرض لتحمل بالزرع.

وسمى أنكى باسم آخر هو (آبسو ABZU) وهو بدوره ملصق من كلمتين (A آ = الماء) + (بسو BZU)، ويترجم الباحثون (BZU) بمعنى البعيد أو العميق^(٣٠)، ويقول (نجيب ميخائيل)، إنهم

قصداً بذلك المياه الجوفية^(٣١)، لكن الغريب في بابه أن هذا الإله، وهو رابع الآلهة الخالقة الأربع، المكتوبة من أسرة ثالوثية (آن، كي، أنليل) مضافاً إليها (آنكى) رغم كونه ليس عضواً في الأسرة!! ثم لماذا يكون (آنكى) ماء العمق أو المياه الجوفية بالذات، كعنصر إحياء فاعل في عملية الخلق؟ لماذا لا تكون مياه الأمطار أو الأنهار هي صاحبة هذا الدور الخالق، في بلد يغمره النهران العظيمان: دجلة والفرات؟.

الحقيقة أنى وقفت مع (آنكى) أو (آبسو) وقفة طويلة، انتهيت منها إلى اعتباره فعلاً ذكراً هو الماء، لكنه ماء إلهى أو هو منى الإله (آن) السماء، الذى زرعه في رحم الأم الأرض (كى). وهو ما يفسر لنا تركيب اسمه من السماء والأرض معاً (آن + كى)، فهو الفعل المشترك لأبوى الحياة، هو ماء الحياة الذى استقر في رحم الأرض لتظل دائماً مصدراً مستمراً للحياة مما يفسر غياب (آن) وتواريه، بعد أن قام بالمطلوب منه دفعة واحدة، ثم ترك لمائه أن يفعل فعله المستمر في إنتاج حياة مستمرة، وهو أيضاً ما يفسر لنا تأليه (آنكى) كإله خالق، رغم كونه ليس عضواً في الأسرة الخالقة الثالوثية، فهو خالق باعتباره منى (آن)، أو هو روح قدسية منه حلت في حشا الأم الأرض (كى)، ويلتقى ذلك مع اعتقاد السومريين أن مياه الأنهار تنبع من مياه العمق تحت الأرض، وهو ما

^(٣٠) كريبمر: من الواح.. سبق ذكره، ص ١٧٨.

^(٣١) د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص ١١٨.

يشككنا في

ترجمة (آبسو) بماء العمق فكلمة (آبسو)، نعم، تحمل معنى الغور والبعد، لكنها مع فهمنا للأمر تتضح، فتصبح (المياه الكامنة في الرحم). وأقترح الترجمة الأدق وهي (السائل المخصب)، ويدعمني في ذلك أن الإله (دومو زى آبسو DUMU-ZI-ABZU) يترجم اسمه إلى (الابن الحقيقي لمياه العمق)^(٣٢)، علماً أنه كان إلهاً للخصب وموكلاً بإخصاب الأرض، إضافة إلى أن (آنكى) باسم (آبسو) كان يعد خالق الزرع والحياة والبشر، أو نصياً (الذى خلقت يده البشر)^(٣٣) وهو (خالق العالم)^(٣٤)، وإن تحليلنا هذا، وترجمتنا تلك، توضح لنا: لماذا أدخله السومريون ضمن الآلهة الخالقة، رغم كونه ليس فرداً في الأسرة الثالوثية الخالقة، وهو ما ينقلنا إلى بحث الدور الذى قام به كل من الآلهة الأربع، في عملية الخلق.

التكوين الكونى

عندما لم يكن العلم بجغرافية الأرض قد اتسع بعد، تصور السومريون الأرض قرصاً منبسطة هو الدنيا، محدد بحدود لا تتجاوز الهند شرقاً والبحر الأبيض المتوسط غرباً، وبلاد الأناضول والقوقاس شمالاً، والخليج العربى وبعضاً من المحيط الهندى، وجزيرة العرب، جنوباً.

ويقع تحت هذا القرص، عالم تحت أرضى سفلى، هو مقر الأموات، ويلى مقر الأموات مياه العمق، التى انتقنا على ترجمتها بـ (السائل المخصب آبسو ABZU أو آنكى ANKI)، ولو صعدنا على وجه القرص الأرضى، نجد هناك قرصاً آخر يعلوه هو السماء، مقر (آن) وكثير من الآلهة، وهو قرص محدب في شكل قبة

(٣٢) د. فاضل عبد الواحد: عشتار ومأساة تموز، وزارة الإعلام العراقية، بغداد، ١٩٨٣، ص ٤٠، ٣٦.

(٣٣) د. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد.. سبق ذكره، ص ١١٩.

(٣٤) بوتيرو: سبق ذكره، ص ٣٨.

صلبة تحيط بالقرص الأرضى من جميع جهاته، ثم ما بين القبة السماوية والقرص الأرضى، يمرح الريح أو الهواء أو الروح أو الجو أو الأثير، تلك المادة التى أسموها (ليل LIL)، وكل هذا فى مجموعه يقف راكداً فى بحر لامتناهٍ يحيط بالكل من جميع الجهات، وهذا البحر اللامتناهى كان – فى اعتقادهم – منبع كل الوجود ومادته الأولى^(٣٥)، وهذا هو كل شيء، كل الكون: منظوراً وغير منظور.

ورغم أنه لم تصلنا عن السومريين نظرية متكاملة، توضح لنا آراءهم فى كيفية وجود العالم ونشأته، فى الآثاريات المكتشفة حتى الآن على الأقل، فإنه يمكن استخلاص سفر تكوين سومرى، من خلال دراسة متأنية للنصوص المتفرقة فى أساطيرهم وآدابهم المتعلقة بالخلق، مع أخذنا بالحسبان أن هذه الأساطير ليست بالسذاجة التى تبدو ظاهرة فيها، إنما هى لغة لها خصوصيتها ومفرداتها المتميزة، واصطلاحاتها الخاصة، لتبليغ ما تريد من حقائق مقررة فى نظر أصحابها مع اعتبارنا لمراحل التطور التدريجى التى سار فيها الفكر الإنسانى بادئاً من مثل هذه البدايات الأولى.

وكغيرهم من الشعوب، تأمل السومريون فى طبيعة الكون وأصله، ونشأته، فظهر لديهم فى غضون الألف الثالث قبل الميلاد، طائفة من المفكرين والحكماء حاولوا إشباع هذا الفضول المعرفى، بوضع إجابات مُرضية، للتساؤلات التى أثارها تأملهم فى الكون وطبيعة الأشياء، دفعت الأثاريين إلى حد الزعم أن السومريين وصلوا إلى آراء ومعتقدات ومبادئ، أصبحت أساساً لعقائد شعوب الشرق الأدنى^(٣٦)، ودفعت بنا نحن إلى جمع شتاتها من الأساطير والملاحم، لتعطينا سفراً سومرياً للتكوين، يمكن أن نتضح سماته تدريجياً مع بحثنا هذا.

وسعياً وراء هدفنا هذا، نجد فى اللوح الذى يعدد أسماء الآلهة السومرية تقريراً لمبدأ يقول: إنه فى البدء

^(٣٥) كرىمر: السومريون... سبق ذكره، ص ١٥٠، ١٤٩.

^(٣٦) كرىمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص ١٥١.

كانت (نمو NAMU)، وقد عبّر الخط المسماري عن (نمو) بالمقطع الصوري الذي يعبر عن البحر، ووصفت (نمو) بأنها الأم التي ولدت السماء والأرض، وهو ما يصور لنا الوجود قبل التكوين كمحيط أو غمر من الماء الأولى الأزلى، وهو تصور غالب على ثقافات الشعوب القديمة التي اعتقدت بخروج الآلهة من محيط عظيم، كان هو الوجود الأول قبل أن توجد كائنات الطبيعة.

وقد فسرت مدرسة التحليل النفسي انتشار نظرية الميلاد المائي لدى الشعوب القديمة، باعتبارها انعكاساً لذكرى كامنة في لاشعور الإنسان، حول حالة الجنين في الماء الرحمي للأم، سابقاً في بحره الأول، ويذهب بعض الباحثين مثل (فراس السواح) إلى تفسير ميلاد الأرض والسماء من البحر الأول، بأنه وسط الماء ظهرت جزيرة يابسة على هيئة جبل، قبته السماء وقاعدته الأرض^(٣٧) والسماء هي ما عرفناه باسم (آن AN إله ذكر)، والأرض هي ما عرفناها باسم (كي KI أو جي GI إلهة أنثى)، وأنه نتيجة التزاوج بين القبة (آن) والقاعدة (كي) جاء الابن الإلهي في أول أسرة ثالوثية (آن ليل)، والاسم الإلهي (آنليل) ملصق كما أسلفنا من كلمتين (آن = لفظ جلالة + ليل = مادة ما بين السماء والأرض) ذلك الإله الذي شب مبكراً

عن طوقه، ففصل أباه عن أمه الأرض، ورفع الأب إلى الأعلى (سماء)، وحط بالأم إلى الأسفل (الأرض). وقد جاء ذلك متفرقاً مشتتاً في عدة أساطير، نقتطع بعضها مما جاء فيها، مثل أسطورة خلق الفأس (ترجمة كريمر)، التي تستهل بمقطع يقول:

الرب الذي يملك حقاً

هو الذي أظهر للعيان

الرب الذي لا يتبدل في أحكامه آنليل

^(٣٧) السواح: مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٧.

الذى يجلب البذور إلى الأرض ليزرعها
تولى برعايته فصل السماء عن الأرض
تولى برعايته فصل الأرض عن السماء^(٣٨).

إلا أن (فوزى رشيد) الباحث العراقي فى السومريات، يعطينا ترجمة أخرى لذات المقاطع، فيقول:

السيد الإله أنليل

قد جعل كل ما هو نافع، يبدو ناصعاً
السيد الذى تقريره للمصير لا يمكن أن يتغير
قد أسرع لفصل السماء عن الأرض
قد أسرع لفصل الأرض عن السماء^(٣٩).

وفى ملحمة أخرى، لم يتم التعرف على عنوانها بسبب ما أصابها من تلف، اصطلح على تسميتها (-KAR. ٤

Mathos)، جاءت أبيات تقول:

عندما فصلت السماء عن الأرض

بعدما كانتا متصلتين

ظهرت الإلهة الأم

وبعدما وضعت الأرض وثبتت فى مكانها

وبعدما وضعت الآلهة قواعد السماء والأرض

^(٣٨) كريم: الأساطير.. سبق ذكره، ص ٦٦، ٦٥.

^(٣٩) د. فوزى رشيد: خلق الإنسان فى الملاحم السومرية والبابلية، مجلة أفاق عربية، بغداد، أيار ١٩٨١، ص ١٧.

وبعدما نظمت الآلهة الجداول والقنوات وثبتت شواطئ دجلة والفرات

جلست الآلهة :

آن

آنليل

أوتو

آنكى^(٤٠)

وقبل أن نمضى فى استقصاء قصة التكوين السومرية من

المتفرقات المتناثرة، نقف هنيهة مع ما أسلفنا ذكره، لنحدد الأمور بشكل أقرب إلى الدقة والوضوح، فنقول:

إن الاجتهاد فى تفسير خروج السماء والأرض من البحر الأول (كما ورد عند الباحث سواح)، على أنه خروج لجزيرة أو جبل من الماء الأول، قبته السماء وقاعدته الأرض، هو اجتهاد لا مبرر له، كما أنه لا سند له فيما بين أجدينا من ملاحم وأساطير، وكل ما وصلنا هو إشارات عامة عن اعتقاد بوجود محيط ماء أزل، ومنه كانت السماء (آن) والأرض (كى)، ومنهما جاء (آنليل) ليفصل بينهما، ولا شىء زيادة على ذلك فى هذا الجزء من التكوين السومرى ومن هنا أتصور الفهم الأصح، هو أن هذا المحيط البدئى كان ذكراً وأنثى فى ذات الوقت، أى أنهم تصوروه كائناً لديه قدرة التوالد الذاتى، فكان فيه الماء المذكر، والماء المؤنث، وهو ما سنؤيده قصة التكوين الأكادية والبابلية، التى سنفصل القول فيها فيما بعد، بعدما عثر عليها شبه متكاملة، ويزعم الباحثون أنها أخذت مادتها وتفصيلها عن التراث السومرى، فأكدت القصة الأكادية أن البدء كان ماء ذكر وماء أنثى،

أنجبا سلسلة كيانات الوجود على

(٤٠) د. فوزي رشيد: الموضع نفسه.

التوالى^(٤١)، وهو ما يدعم فهمنا المبدئي للحالي للتكوين السومري.

ونتيجة لتلاحق هذا الكائن المذكر المؤنث مع ذاته، أنجب كياناً جديداً هو (ليل)، الذي ترجم بمعنى الهواء، وأرى أنه يحمل في اسمه أيضاً معناه الذي حملته كل اللغات السامية بما فيها العربية، بمعنى الليل أو العتمة، وبإضافة اسم الجلالة السومري (آن) يصبح (آنليل AN-LIL)، وفي اللغات السامية بدءاً من الأكاديين الذين حلوا محل السومريين في الرافدين يحل اسم الجلالة السامي (إيل أو إل EL) محل اسم الجلالة السومري (آن)، فيصبح (آنليل) هو (الليل EL-LIL)^(٤٢).

ويساعد على فهمنا هذا، أن (نانا NANA) إله الليل وهو القمر متولد أصلاً في المفاهيم الرافدية من الهواء، وتؤكد الأساطير الرافدية أن القمر ابن (آنليل)، ومن هنا نعتقد أن الهواء والليل حملاً معنى واحداً لدى السومريين.

وهكذا جاء الهواء أو الليل أو العتمة أو الظلمة (آنليل)، ليفصل في الغمر أو البحر الأول (نمو) بين مياه ومياه، فرفع المياه الذكر إلى الأعلى لتصبح سماء وحط بالمياه الأنثى إلى الأسفل لتصبح أرضاً وفي ذلك ما يفسر لنا اعتبار الإله (آنكي ANKI) إلهاً للماء، كما يلتقى مع تصور الأقدمين للسماء كبحر علوي، تهطل منه الأمطار والسيول، عندما تفتح أبوابه بماء منهمر.

وبذلك تمكن (آنليل) من أن يحدد في الماء الأول بين ماء ذكر وماء أنثى، ويفصلهما عن بعضهما، حدد لكل

^(٤١) في قصة التكوين البابلية Enuma Elish (وكان يراد بها تمجيد مردوخ كبير آلهة بابل بحسبانه خالقاً للكون) جاء القول: إنه في البدء لم يكن في الوجود سوى محيط من الماء شاسع، اختلط فيه الماء العذب (أيسو)، بالماء المالح (تيامة) التفاصيل يرجع إليها في موسكاتي، سبق ذكره، ص ٨٥، ٨٣.

^(٤٢) من المعروف لدى الباحثين في تاريخ الديانات وفي الميثولوجيا بشكل عام أن (إل) أو (إيل) يعد كبير الآلهة السامية على اختلاف مواطنها، بما فيهم اليهود وقد ورد اسمه في التوراة مرافقاً للمهد الإبراهيمي حتى نبوة موسى، كما ورد ملصقاً في أسماء الأعلام، لآلهة أدنى منه شأنًا تحولت مع التطور إلى (الملائكة)، كما في أسماء عزرائيل، جبرائيل، إسرافيل، ميكايل... الخ.

منهما هويته وذاتيته وشخصيته المستقلة، وهو ما يمكن فهمه من ترجمة كريمر السالفة (هو الذى أظهر للعيان)، والتي حاول (فوزى رشيد) أن يجعلها أوضح فى ترجمته لنفس النص (قد جعل كل ما هو نافع يبدو ناصعاً)، أى واضحاً ومحددأ ومستقلاً بشخصه، وأتصور أنه حتى (يظهر للعيان) ويجعل كل ما هو نافع (يبدو ناصعاً)، كان لا بد من عمل آخر هو أن يحيل الظلمة التى على وجه الغمر البدائى إلى ضياء، يظهر للعيان ويجعل المرثيات ناصعة واضحة، لذلك جاء فى زعم (كريمر) أن (أنليل) هو الذى جاء بالإله الشمس (أوتو (AUTO)، ولعل أوضح تأييد لفهمنا هذا ما سجلته نهاية المقاطع التى أوردناها من أسطورة (KAR. ٤- (METHOS)، أقصد:

وبعد ما وضعت الآلهة قواعد السماء والأرض

جلست الآلهة:

آن

أنليل

أوتو

آنكى

ويظهر هنا (أوتو) الشمس، مقروناً بظهور الكيانات الكبرى فى الوجود، ويأتينا الإله (آنكى) إله الماء، بديلاً عن (كى) الأرض ضمن الأربعة الخالقة التى عرفناها، والتي اختفت منها فى هذا النص الإلهة (كى)، مما يوحي بما زعمناه، حول حساباتهم الأرض كانت أصلاً مياهاً، انفصلت عنها مياه السماء، ثم وبعد عناء عملية الخلق الكبرى تلك، جلست الآلهة على عروشها، أو استراحت، أو استوت.

التكوين الكائني:

مع أسطورة (جلجامش وإنكيديو والعالم السفلي) نتابع بحثنا عن حقائق سفر التكوين السومري، فيوقفنا مقطع واضح في مقدمتها

يقول:

بعد أن ابتعدت السماء عن الأرض

بعد أن انفصلت الأرض عن السماء

بعد أن عين اسم الإنسان

بعد أن أصبحت السماء بحوزة (آن)

بعد أن أصبحت الأرض بحوزة (أنليل)^(٤٣).

ونفهم من ذلك، أنه بعدما انتهى (أنليل) من فصل السماء عن الأرض وبعد ما نظم كونه، وبعدما تقرر خلق البشر على الأرض (بعد أن عين اسم الإنسان)، اتحد (أنليل) بأمه الأرض، بعد أن أزاح أباه، وهو ما يلتقى مع فروض مدرسة التحليل النفسي، في رغبة الابن إزاحة الأب والاستيلاء على الأم، خاصة أن أفعال (أنليل) الخالقة تتوقف عند هذا الحد، ولا يظهر له دور في عملية خلق الإنسان، فيما تحت أيدينا من نصوص، كما لو كان تحقيقاً لرغبة موقوفة التحقيق والنتيجة، فلا هو ينجب من أمه الأرض، ولا هو يعاشرها أصلاً، (كما لو كان تحقيقاً لفكرة التابو والتحریم ضد الرغبة)، إضافة إلى أن النص: (بعد أن أصبحت الأرض بحوزة أنليل) يلتقى مع ما سبق وافترضناه في اقتران ظهور (أنليل) على سائر الآلهة، أو على الأب (آن)، ببداية سلطة الحاكم الكاهن في

^(٤٣) كريمر: من الواح.. سبق ذكره، ص ٦٣.

المشترك المعبدى، (بعد أن أصبحت الأرض بحوزة أنليل).

وفيما يتعلق بخلق الإنسان هناك أسطورة أخرى تقول: إن الأرض أنجبت الزرع والحيوان والإنسان، خرجوا من طينها كالود والحشيش، ثم تصوّر هؤلاء البشر تصويراً يكاد يعطيها مشروعية علمية فتقول:

البشر الأول لم يعرفوا أكل الخبز بعد

يسيروا على أيديهم وأرجلهم

كالخراف يعلفون الحشائش

ومن القنوات كانوا يشربون الماء آنذاك

فى المكان الذى كانت فيه الآلهة فى معبدها

التل المقدس.. المعبد..

المكان الذى تأكل فيه الآلهة الخبز^(٤٤)

(فهل كان هذا النص تسجيلاً لقصة بشر تطوروا وسط بشر ظلوا على حالتهم الحيوانية؟ ربما).

لكن هناك نصاً آخر، يروى قصة أخرى لخلق الإنسان وجد منقوشاً على لوحين مكررين لنص واحد، جاء أحدهما من مدينة (نفر) وهو حالياً فى جامعة بنسلفانيا، والآخر محفوظ فى متحف

اللوfer، يقول:

الأم الأولى نمو تأتى إلى أنكى

(اتفقنا على ترجمة أنكى:السائل المخصب أبسو)

^(٤٤) د. فوزي رشيد: خلق الإنسان.. سبق ذكره، ص ٢١.

وتخاطبه: قم يا بنى من فراشك
واعمل ما هو حكيم لائق
اصنع عبيداً للآلهة
وعساهم أن يضاعفوا من عددهم
فتدبر أنكى الأمر وقال لأمه نمو:
يا أماه: إن المخلوق الذى نطقت باسمه موجود
فاربطى عليه صورة الآلهة
اعجنى لب الطين الموجود فوق مياه العمق
(اتفقنا أن ماء العمق آبسو السائل المخصب)
واجعلى الصانعين المهرة يكتفون الطين
وعليك أنت أن توجدى له الأعضاء والجوارح
وستعمل نمامه (الأرض الأم أو السيدة الأم)
الأم الإلهة
من فوق يديك
وستقوم بجانبك إلهة الولادة
(يبدوا أنها نمامه ذاتها)
وستربط نمامه عليه صورة الآلهة
إنه الإنسان^(٤٥).

^(٤٥) كريم: السومريون... سبق ذكره، ص ١٩٩.

ونفهم من هذا النص أن الذى يجب أن ينسب إليه فعل خلق الإنسان هو الإله (آنكى)، بوصفه سائل الخصب أو منى (آن) مشخصاً فى إله وأنه لم يفعل أكثر من تلقيح طين الأرض (اعجني لب الطين الموجود فوق مياه العمق)، وأفضل ترجمتها (اعجني له الطين وسيكون فوقه أبسو المنى) خاصة أنه رغم طلب الأم الإلهة من (آنكى) القيام بخلق الإنسان، لا نجد له دوراً سوى ذلك، لأن الأم الأرض (ننماه)، الوالدة (ننتو)، هى التى عملت الطين (وستعمل ننماه الأم الإلهة من فوق يديك)، ثم إنها هى التى صورتها فى هيئة الإنسان على شبه الآلهة (فاربطى عليه صورة الآلهة)، ومن هنا خلقت الآلهة الإنسان على شبيها ومثالها، ويعقب (كريمير)، على ترجمته للنص السالف بقوله: «إن المفكرين السومريين.. اعتقدوا اعتقاداً جازماً بأن الإنسان صنع من طين، وأنه خلق من أجل غرض واحد فقط، ذلك هو أن يعبد الآلهة ويخدمها بتزويدها بالطعام والشراب والمسكن ليتوافر لها وقت الفراغ لأعمالها الإلهية»^(٤٦).

ولنلاحظ هنا كيف استطاع هؤلاء المفكرون، وهم الكهان، وهم الحاكمون، أن يحققوا فائض إنتاج ملائم بين أيديهم، مقابل تفرغهم لإدارة المشترك المعبدى، والاتصال بالآلهة، باعتبار ذلك مسألة قدسية تتمثل فى تزويد الآلهة بالطعام والشراب والمسكن، أو بالقرابين تدخل من فائض إنتاج الأفراد إلى ملكية خاصة بالآلهة والكهنة، إضافة إلى المسكن الفاخر للآلهة (المعبد)، الذى كان فى واقعة قصرراً سكنياً وإدارياً للكهنة.

وقد حاول (بوتيررو) تعليل إصرار أهل سومر على فكرة خلق الإنسان من مادة الطين بالذات، بقوله: «إن هذا التمثيل والصنع من الطين لأجسام البشر الأوائل، يعتبر صورة طبيعية جداً، فى بلد يلعب فيه الفخار دوراً

^(٤٦) كريمير: من الواح.. سبق ذكره، ص ١٩١.

كبيراً، حيث نجد صنع التماثيل من الطين الفخارى بشكل إنسان، عملاً منتشرأ بصورة واسعة»^(٤٧).

أما نحن فنعتقد ببساطة، أنه كان يكفى للسومرى أن يلاحظ الطين وما ينشأ فيه من حياة (فطر، نبات، ديدان... الخ) حتى تنشأ لديه قناعة أن هذا هو مصدر ومنشأ الحياة عموماً،ولما لم يكن لديه شاهد عيانى على خروج إنسان من الطين فجأة دفعة واحدة، كالزرع أو الدود، فقد اعتقد أن ذلك قد حدث بنوع من التشكيل الفخارى لأجداده الأوائل.

وبالبحث عن التسمية التى أطلقها السومريون على هذا المخلوق الطينى نجد الاسم (إنسى ANZI)وهى فى

تحليلنا تعنى مثل أو شبيه

الإله (آن)، باعتبار (سى ZI) تعنى الشبيه أو الحقيقى،ويقول (حسن ظاظا) إن الاسم (أنسى) قد تخلف فى كل اللغات السامية للدلالة على الإنسان، وأن مؤنثه كان يتأتى بقلب السين إلى (ش) فيصبح (أنشى)، أو إلى (ت) فيصبح (أنتى) أو (ث) فيصبح (أنتى) كما فى العربية وجمعها (إناث)^(٤٨)،لكن (كريم) يشير إلى أن الاسم (إنسى) كان اللقب الذى يعرف به ملوك المدن السومرية^(٤٩)، ونعتقد أنه لا خلاف، فالأمر راجع إلى تعظيم الملك باعتباره أباً أولاً للمشارك المدينى الذى كانت تدين فيه كل عشيرة بالعبادة لأبيها، الذى تمثل بتجميع العشائر فى مدينة فى شخص الملك، فأصبح هو أب الجميع الأول (إنسى) وكان يلقب أيضاً باللقب (لوجل)^(٥٠)، أى الرجل العظيم، أو ذا الجلال، ونظنها الأصل فى الكلمة الدالة على مذكر الإنسان (رجل).

لكننا نعتقد أن مؤنث الكلمة (إنسى) السومرية، ليس (أنتى) أو (أنتى)، لأن (إنسى) مركبة من ملصقين هما

(آن = الإله أو السيد + سى)، وبما أن مؤنث (آن = سيد) هو (نن = سيدة)، فإن مؤنث (إنسى) يكون (نن سى)

^(٤٧) بوتيرو: سبق ذكره، ص ١١٠.

^(٤٨) د. حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم، مطبعة المصرى، الإسكندرية، ١٩٧١، ص ١١.

^(٤٩) كريم: السومريون... سبق ذكره، ص ٤٦.

^(٥٠) ظاظا: سبق ذكره، ص ٣٤.

أو (ننسى)، وبحسبان ما أشار إليه (ظاظا)

يسهل أن تتحول (ننسى) إلى (ننشى) و(ننتى) بشكل خاص، وقد ورد الاسم (ننتى) فى أسطورة ترجمها (كريم)، مما يؤكد استخلاصنا هذا، وقد جاء هذا الاسم فى أسطورة تقول إن (نن تى) إلهة خلقت أصلاً لغرض خاص جداً، هو تمريض وعلاج الإله (أنكى) عندما أصابه المرض فى واحد من أضلاعه، والضلع بالسومرية هو (تى)، لذلك سميت الإلهة الممرضة (نن تى) أى (سيدة الضلع)، ويعقب (كريم) على ذلك تعقيباً يكاد يوعد لنا فيه بحل أحجية خلق حواء من ضلع آدم، التى وردت فى الديانات السامية، حتى يكاد يقنعنا أن نصوص سفر التكوين فى التوراة، قد أخذت ما جاء فى الأسطورة السومرية بشكل شائه، بعد مرور زمان نسى معه الأصل، ولم يبق سوى سيدة الضلع أو السيدة الضلع، فخالوا الأنثى الأولى مخلوقة من ضلع الإنسان الأول، وسقط كاتب هذا الجزء من التوراة، فى الشرك السومرى، ففسر حواء التى تدل على الأنثى الأولى فى اللغات السامية بأنها مأخوذة من «تلك السيدة التى تحى أى التى تسبب الحياة»^(٥١). وهو ما تعنيه أيضاً الكلمة (تى)، لأن (تى) تدل على الضلع عندما تكون اسماً، لكنها كفعل تعنى (أحيا)، أو جعله (يحيا) ويصبح اسم (نن تى) أو (ننتى)، السيدة التى تحى^(٥٢).

وأصر كريم على إفهامنا أن التوراة قد أحدثت خطأ ناتجاً عن سوء فهم للتراث السومرى، بين (ننتى)

كسيدة للضلع مهمتها شفاء ضلع (أنكى)، وبين (ننتى) بمعنى السيدة التى تحى، لأن (تى) تعنى (أحيا).

ومع حفظنا لنقل (كريم) وتقديرنا له كمصدر غزير للسومريات، فنحن ننحو منحى آخر فى تصورنا لما

^(٥١) تقول التوراة: «ودعا آدم اسم امراته حواء، لأنها لم كل حي، تكوين ٣-٢٠».

^(٥٢) كريم: من الواح.. سبق ذكره، ص ٢٤٤، ٢٤٣.

حدث، فإذا افترضنا أنه قد حدث خلط فعلاً، فقد كان في الكلمة السامية (حواء) من الفعل السامى (أحيا) وهو فعل له اشتقاق عدة، منها(حوا) أى استدار حول الشيء و احتواه، كحمل الأم لطفلها فى استدارة بطنها ،و (حيا)و هو الفرج و من هنا يصبح الفعل (أحيا) ،هو إخراج الحياة المحوية فى البطن من الحيا،وبعد أن تعاملنا مع الاسم (إن تى) كمؤنث لـ(آنسى) و انتهينا إلى وجوب تصحيحه إلى (نن تى) ،فإن قمنا بالاشتقاق منها على الطريقة السامية فى (حواء) من (حيا)، فستصبح (ننتى) هى (ننتو) ،وهو الاسم الذى عرفناه لإلهة الولادة السومرية و ترجمته الحرفية (السيدة التى تلد) .

أما لو افترضنا أنه لم يحدث هذا الخلط فى التوراة، فسيكون هناك خطأ ما فى ترجمة الأسطورة الخاصة بخلق ممرضة ضلع (آنكى)، ونأسف لأن أصولها ليست بين أيدينا ،وفى مثل هذه الحالة كان يمكننا افتراض أن (ننتى) كانت أنثى خلقت من ضلع الذكر، وليكن (آنكى) كما قال (كريم) وليكن، (آنسى) بالفرض. وأنه كان يعاني من مرض فى ضلعه، كان انتزاعه منه كفيلاً بشفائه ، وعليه

لا تكون (ننتى) إلهة وليست أنثى بشرية، فهو ما لا يتناقض مع قوانين التطور الفكرى والاجتماعى، التى عبت الأسلاف كآلهة ذكوراً وإناثاً.

ولا يفوتنا أن نشير إلى اختصاص الأم الأولى بلقب آخر فى السومرية هو (مونوس)،التي هي فيما نظن الأصل فى الكلمة السامية (موموس) التى انحدرت إلى العربية (مومس)، للدلالة على المرأة التى لا تعرف رجلاً واحداً كما لو كان فى اللغة خاصية الحفريات ، فاحتفظت لنا بكلمة ذات معنى حفري سحيق،لتشير إلى عصر كانت فيه المرأة مشاعاً فى المجتمع الأمومى أو النظام الغابر.

لكن أغرب ما فى علاقة الفكر الدينى السومرى بالفكر الدينى السامى، ولعله ليس أغرب إنما أقرب إلى طبيعة الأمور، هو ذلك الختم الأسطوانى الذى كشف عنه مؤخراً، ويصور ذكراً وأنثى، بينهما نخلة، وخلف الأنثى تدلت حية، رأسها بجوار رأس الأنثى، بينما تمد هذه الأنثى يدها فى شكل دعوة للذكر الجالس قبالتها، ليتناول من ثمار النخلة، ولنتذكر الآن الارتباط اللغوى بين الحية، وبين حيا الأنثى (فرجها)، وبين الحياة، (فالأنثى مصدر للمواليد، للحياة) ، وبين التسمية (حواء) ويبدو أن هذا الارتباط المتوارث، كان ناتج تصور الأقدمين أن الحية دائمة التجدد، ودائمة الحياة، عن طريق مشاهدتهم لها تتسلخ من جلودها العتيقة لتخرج بجلود جديدة زاهية ، فى حركة تشبه خروج الجنين من حيا الأم ، و لعل ذلك يفسر لنا الارتباط العجيب فى العقل القديم ، بين المرأة كمصدر

للحياة باستمرار ، و بين الحية التى تتجدد و تولد دائماً بانسلاخها من جلدها ، و بين تصور كليهما (المرأة - الحية) كمصدر للخيب و الأذى؟!.

الخطيئة والسقوط

رغم أنه كان للآلهة معابدها، التى كانت فى الوقت نفسه مسكناً لها، ومركزاً إدارياً للمشترك المعبدى، ومحل إقامة لكبير الكهنة وبطانته، أطلق عليها اسم (إى E)، فإن هذه المعابد لم تكن مقاراً دائمة للآلهة، قدر ما كانت بقاعاً أرضية مقدسة، تلتقى فيها الآلهة بكهننتها، لتفسير النذر أو قبول القرابين، أو لإصدار قرارات تتعلق بأمر مستعجلة، بينما كان مقرها الدائم كما جاء فى الأساطير هو جبل السماء والأرض. أما أين هذا الجبل؟ فهو ما لا تجيب عنه المدونات الموجودة بشكل واضح، لكن يمكن الاستنتاج من مجموعة وثائق وأساطير، أنه كان فى

مكان يدعى (دلمون DILMOUN) حيث وردت كمكان تجرى فيه أحداث عظام، بين الآلهة السومرية، فظهرت (دلمون) كما لو كانت مسكناً دائماً للآلهة، وفي مجموعة أخرى من الأساطير تبدو (دلمون) كما لو كانت مسكناً وموطناً للإله خالق البشر (أنكى) أو (أنسى)، إذا اعتبرناه أبا البشر الأول، وأنه أنجب هناك عدداً من الآلهة^(٥٣).

ونفرد نحن في بحثنا هذا بزعم يدعمه ما تحت أيدينا من وثائق، هو أن (دلمون) كانت المكان الذي قامت فيه الآلهة بخلق أول بشر على الأرض، فقد وصفت هذه المآثر (دلمون) بأنها:

الأرض دلمون هي الموطن الطاهر

الأرض دلمون هي المحل النظيف

الأرض دلمون هي الأرض المشرقة

هو ذلك الذي اضطجع وحده في دلمون

المحل الذي اضطجع فيه أنكى مع

زوجته^(٥٤)

* * *

في دلمون لا ينقع الغراب الأسود..

ولا يصيح طائر الأندو (الحدأة) ولا يصرخ

ولا يفترس الأسد

^(٥٣) كريمر: السومريون... سبق ذكره، ص ٤٠٧.

^(٥٤) كريمر: الأساطير... سبق ذكره، ص ٨٥.

والذئب لا يفترس الحمل
ولم يعرفوا الكلب المتوحش الذى يفترس الجداء
ولم يعرفوا (خرم بالنص) الذى يفترس الغلة
ولم توجد الأرملة
والطير فى الأعلى (خرم بالنص)..

والحمامة لا يحنى رأسها
وما من أرمذ يشتكى ويقول عيني مريضة
ولا مصدوع يقول فى رأسى مرض الصداع^(٥٥)
وامرأة دلمون العجوز لا تشكو من الشيخوخة
ورجل دلمون الشيخ لا يتبرم من كبر السن^(٥٦).

أما السر فى كون (دلمون)، أخذت شكل المدينة السعيدة الفاضلة فيرجع إلى حلول الإله (آنكى) فيها^(٥٧)،
وتقول أسطورة (آنكى وننهور ساج ENKI & NIN HURSAG) التى بدأت بوصف (دلمون) كموطن طاهر
نظيف مشرق، يسوده السلام والأمن والطمأنينة: إن الإله (آنكى) حل فيها، وأمر الإله (أوتو) أن يملأها بالماء
العذب، لكونها كانت تفتقده، وعند ذلك أصبحت:

مدينتها تشرب الماء الوفير

^(٥٥) كريمر: من الواح.. سبق ذكره، ص ٢٤٤.
^(٥٦) كريمر: الأساطير.. سبق ذكره، ص ٨٦.
^(٥٧) د. زايد: سبق ذكره، ص ١١٨.

دلمون تشرب ماء الرخاء

آبارها ذات الماء المر

انظر

تراها أصبحت مياهها عذبة

حقولها ومزارعها أنتجت الغلة والقمح

مدينتها، انظر، تراها

وقد أصبحت داراً للشواطئ

ومرسى للأرض^(٥٨).

لكن حتى يتأتى لهذه الأرض زرع، كان لابد من إلهة للزرع والنبات جاءت عبر عدة عمليات خلق، فأولاً يقوم الإله (أنكى) بوصفه المخصب بتخصيب الإلهة (نهور ساج)، فتحمل لمدة تسعة أيام، وتضع إلهة الزرع^(٥٩)، وأنصور إلهة النبات هذه هي حبة القمح، أو أول حبة قمح، فاسمها (نن شال)، و(شال) كلمة تدل على الفرج الأنثوي كمصدر للحياة فهي السيدة الفرج أو الإلهة الفرج، مع ملاحظة التشابه بين حبة القمح المفلوقة وبين الفرج الأنثوي، وما قد يخطر على بال القدماء، عندما يشاهدون فلقة حبة القمح تخرج حياة جديدة، بعد ربيها بماء الخصب كما ينفلق الفرج الأنثوي عن ميلاد جديد بعد ربه بماء الذكر.

إلا أن الأسطورة تشير إلى خلق ثمان نباتات أخرى خلقتها الأم (نهور ساج) فأكلها (أنكى)، فغضبت عليه (نهور ساج) غضباً شديداً، حتى أنها قامت تصب عليه اللعنات قائلة: «لن أنظر إليك بعين الحياة حتى تموت»،

^(٥٨) كريمر: الأساطير.. سبق ذكره، ص ٨٧، ٨٦.

^(٥٩) كريمر: الموضوع نفسه.

وهنا أخذ المرض يشتد بـ(آنكى) وبدأ يتدهور ويذبل^(١٠).

ولنقف الآن قليلاً مع ما جاء فى هذه الأسطورة، التى أراها أول تسجيل حقيقى اكتشف حتى الآن لقصة الخطيئة الأولى!! فنتساءل: لماذا غضبت (نهور ساج) كل هذا الغضب على (آنكى) لو لم تكن قد أنذرتهم سلفاً، وحرمت عليه هذه الثمار قبلاً، وأعلمته بذلك إعلماً واضحاً؟ ومع ملاحظة أن النص به خروم وتشوهات كثيرة أدت لفقد كثير من الأبيات والمضامين! إذن من المنطقى أن يكون هناك علم مسبق أحيط به (آنكى) برغبة (نهور ساج) عدم المساس بالنباتات الثمانية، وعندما عصى الأمر كان عقابه الموت « لن أنظر إليك بعين الحياة حتى تموت» ويبقى التساؤل: كيف يمكن لإله مفترض فيه الخلود، أن يمرض ويموت؟! من هنا نفهم أن الأسطورة اعتبرت (آنكى) الأب الأول، وطبيعى أن يتصف بالآلوهية بحسبان عبادة الأب الأول، بخاصة ما جاء فى بداية الأسطورة بعد تقريظ دلمون كأرض طهور نظيفة، وفجأة وبلا مقدمات تقول: «هو ذلك الذى اضطجع وحده فى دلمون»، إنها صورة تلقى بنا فى مرآة الزمان الآتى، عند ظهور التوراة وما قالتها عن أب للبشر يعيش وحيداً فى مكان يسمى الجنة، ثم تقول أسطورتنا عن (دلمون) «إنها المحل الذى اضجع فيه آنكى مع زوجته» فمن كانت هذه الزوجة؟

هل قصدت الأسطورة بالزوجة الإلهة (نهور ساج)؟ ربما؛ لكن الأحداث التى تلت مرض (آنكى) تشير إلى منحنى آخر، رغم عدم النص عليه فى نصنا هذا المهترئ، لأن مرض (آنكى) كان فى واحد من أضلاعه، واتفقنا أن شفاءه تم بنزع الضلع المريض ليصبح هذا الضلع هو (نن تى) سيدة الضلع، فكان (آنكى) بذلك إلهاً معرضاً للموت بسبب خطيئته، وهو ما يتعارض مع صفة الخلود الإلهية. وكان يجمع فى ذاته الذكورة والأنوثة معاً، فهو ذكر خلقت من ضلعه أنثى ليتحول الخلود الفردى الذاتى بالانقسام إلى خلود للنوع عبر تناسل الذكر والأنثى، وعليه تتضح عدة حقائق هى:

* كان للآلهة دار طهارة وسلام للمقام هى (دلمون).

(١٠) د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص ٢٦٣.

* فى دلمون حدثت أول عملية خلق للنبات عن طريق تخصيب (آنكى) لـ(نهور ساج) لتتجب إلهة النبات.

* (نهور ساج) تخلق بمفردها ثمانية نباتات محرمة.

* يأكل (آنكى) النبات المحرم فتحيق به اللعنة الربانية فيمرض بضلعه ويحتضر، لولا نزع هذا الضلع

المريض منه، وتخلق منه سيدة الضلع أولى إناث البشرية.

* يفقد آنكى بذلك ألوهيته كسائل مخصب كوني، ويتحول خلوده الإلهي إلى خلود عبر التناسل، وهنا فى رأى

تكمن العلاقة بين (آنكى) وبين (إنسى) فتحول (آنكى) إلى (إنسى) مهمته التخصيب المستمر لسيدة الضلع (نن

تى) أو (نن تو) أو (سيدة الولادة) أو (ماما) أو (مامى) أو (أماه).

ولا يبقى لكى تترتب المسألة بشكل أفضل سوى أن نستكملها بالختم الاسطوانى الذى صور ذكراً وأنثى
ياكلان من ثمار نخلة، بإيعاز من الحية (والحية رمز جنسى) لنسد به الثغرات الناقصة فى النص، ليصبح أكل
الثمرة المحرمة هو رمز لممارسة الجنس مع أخرى غير (نهور ساج)، مما استوجب غضبها ولعناتها، ولم تكن
هذه الأخرى سوى (نن تى) أو (ننتو) أو (أنتى) أو الأنثى الأم الوالدة الأولى، بينما أصبح آنكى هو (إنسى)
صاحب المنى المقدس، بينما تحولت ثمار النخلة (التمر) (وهى رمز نن تى شافية المرض التى مارس معها
الجنس آنكى، ولنلاحظ نواة التمر المفلوقه وحبه القمح المفلوقه)، لتصبح ثمراً مقدساً وشافياً ومثيراً للغلظة
والشهوة، وسبباً لمزيد من منى الرجل وخصبهه — حتى اليوم — بل نعتقد أن كلمة (تمر) لغة، هى التى أصبحت
بعد ذلك (ثمر)، لتدل — على وجه الإطلاق — على جميع أنواع الثمار بمعنى أنها كانت الأصل الأول للثمر
عموماً وللخصب عموماً، ومثلها القمح وكل حب مفلوق، (ولنلاحظ العلاقة اللغوية بين الحب والخب)، فكان التمر
والحبوب الثمار الأم الأولى فى (دلمون) إلى جوار الأب الأول (آنكى) أو (إنسى) والأم الأولى (نن تى) أو
(أنثى).

وبما أن (دلمون) يشار إليها فى الأساطير السومرية كمركز إلهى خالد يخالف دنيا السومريين فى الرافدين،
فقد بات واضحاً أن (آنكى) الإله الذى فقد الخلود، و(نن تى) زوجته، أو الإنسى والأنثى كابوين للبشر، قد غادرا
هذا المقر الإلهي من زمان بعيد، ليعيشا عيشة إنسانية، بينما ظلت (دلمون) موطن الآلهة الخالدة فى

الأساطير.

العالم التحت أرضي:

إذا كان أنكى إلهاً فقد الخلود وأصبح (إنسى)، فهل كان ممكناً في العقائد السومرية أن يتحول الإنسان إلى إله؟ أو بصيغة أخرى، هل كان ممكناً في الاعتقاد السومري أن يحصل البشر على الخلود الدائم؟ ...

يقول الباحثون أنه لم يخطر قط للسومريين، ولا للشعوب السامية في الرافدين أو باقي الهلال الخصيب، حتى قبل زمن المسيح بقليل، أنه يمكن للإنسان أن يخلد، وقد قررت ملحمة جلجامش ذلك صراحة بتأكيداتها: أنه «عندما خلقت الآلهة الإنسان، قدرت عليه الموت، واحتفظت لنفسها بالخلود»⁽¹¹⁾، وهنا الفارق بين الإنسان والإله، فالإله خالد والبشر فان إلا أن هناك قبساً إلهياً ظل في البشرية، هو المنى الذكري والفرج الأنثوي، الذي يعود إلى الأب الأول (أنكى) والأم الأولى (ننتى) ، أول رعيلى إلهى تحول إلى بشر، فجمع اللاهوت مع الناسوت، أو الألوهية مع البشرية.

وقد عبر السومريون عن قناعتهم باستحالة خلود البشر فى مجموعة أخرى من الأساطير، منها أسطورة (جلجامش وأرض الأحياء) ونقول: إن (جلجامش GELGAMISH) كان يبحث عن نبات الحياة، فالخلود هنا مصدره مادي فى شكل مادة إذا أكلها الفانى خلد، وهى ذات الفكرة التى قالت بها التوراة، حول شجرة الحياة فى الجنة (التكوين ٢-٩: ٢٢) وكى يحصل جلجامش على ثمرة الخلود، رحل إلى دلمون بالذات، فهى مقر الآلهة

(11) ن.ك. ساندرس: ملحمة جلجامش، ترجمة نبيل نوفل وفاروق حافظ، دار المعارف، ١٩٧٠، القاهرة، ص ١٠٢.

الخالدة، لبيحث هناك عن بغيته وفعلاً وجد الشجرة، واقتطف من ثمرها السحري، وعند عودته:

رأى جلجامش بركة ماء

نزل فيها، استحم بمائها

تشممت الحية رائحة النبتة

تسللت، صعدت من الماء

خطفتها

وفيما هي عائدة

تجدد جلدها

وهنا جلس جلجامش وبكى^(١٢)

حقيقة، إن النص بليغ الدلالة، يلخص ما ذهبنا إليه، ويؤكد

بوفاء واضح جلي، فما هي شجرة الخلد في (دلمون) مسكن الآلهة، وموطن آباء البشر الأوائل، تتعرض مرة أخرى لمحاولة السطو عليها، لكن الحية، والحية بالذات دون جميع الكائنات، رمز الحيا (الفرج، الجنس) تتسلل مرة ثانية لتسلب الساعي إلى الخلد ثمرة مسعاه، لتتعم به دونه، وتخلد بانسلاخها من جلدها كلما أن أوان موتها، ولا يكتفى السومري بهذه الرمزية الواضحة إنما يزيدنا إيضاحاً، فيفقد (جلجامش) الخلود في بئر أو بركة ماء والبئر أو البركة باستدارتها رمز واضح آخر للفرج، إنها قصة تدفعنا – أو تكاد – للظن أن الوعي والشعور كان مسألة مبكرة جداً في تاريخ نشوء الحياة على الأرض فاحتفظ الكائن إلى اليوم في عقله بكافة مراحل تطوره الأولى، منذ كان كياناً دقيقاً، يستمر في الوجود عبر عمليات الانقسام الذاتي، حتى تخصصت فيه أعضاء

^(١٢) السواح: سبق ذكره، ص ٢١٤.

للذكورة، وأخرى للأنوثية، ثم الانتقال إلى انفصال الذكر عن الأنثى (الضلع عن أنكى) لينتهي عهد الخلود الفردى لبيدأ عهد الخلود الجماعى للنوع، عبر التناسل، الذى استدعى التجمع الإجبارى والتجاور لممارسة الجنس، حفاظاً على النوع واستمراره، مما أدى بالضرورة إلى نشوء التجمع الإنسانى.

ولعلى لا أعالى إن قلت: إن السومرى القديم، حاول جاهداً - بلغته البدائية - أن يبلغنا بما بقى فى اللاشعور الجمعى من ذكريات سحيقة فى القدم فوضع أساطير أخرى مثل أسطورة معراج (آدابا ADABA) إلى السماء، حيث دعاه هناك إله السماء وأكرم وفادته، فدعاه إلى مائدة تحوى طعام الخلد لكن (آنكى) كان أسبق من إله

السماء، فأوعز إلى (آدابا) ألا يتناول منها شيئاً فيرفض (آدابا) الوليمة الإلهية، ويخسر الخلد^(١٣)، فهل بعد هذا بلاغة فى محاولة السومريين تبليغنا.

فقط، إنسان واحد فقط، رفعه مجد عمله إلى رتبة الألوهية، ونال الخلد وحتى يناله فعلاً تم نقله إلى (دلمون) دار الخلود، ذاك هو بطل أسطورة الطوفان، الذى أنقذ بذرة الحياة على الأرض، فى فلك أسطورى^(١٤)، فكان أن مُنح الحياة الخالدة، أو نصيباً:

زيو سودرا الملك

سجد أمام آن وأنليل

فمنحاه حياة كحياة الآلهة

(١٣) موسكاتى: سبق ذكره، ص ٩٠. انظر أيضاً: ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، الإدارة الثقافية بالجامعة العربية، ط٢، ١٩٦١، القاهرة، مج ١، ج ٢، ص ٣٠.
(١٤) للمزيد أرجع إلى موضوعنا: من الطوفان السومرى إلى الطوفان النوحى، مجلة آفاق عربية، عدد ٩، ١٩٨٣، بغداد.

وجاءا إليه بأنفاس خالدة

كأنفاس الآلهة

وبأمر آن وأنليل

أمام الملك زيوسودرا

الذى يحفظ أسماء (خرم بالنص)

والبشر

فى جبل العبور، جبل (دلمون)

حيث تطلع الشمس^(٦٥)

ويبدو ان بطل الطوفان (زيوسودرا ZIUSUDRA) كان شخصاً حقيقياً، استطاع أن ينقذ فى قاربه إيان كارثة فيضان عاتى، أفراد أسرته وآخرين، فكان مجد عمله كفيلاً برفعه إلى رتبة الألوهية وكانت الأعمال الفدائية والمجيدة — فيما نرى — هى السبب الأساسى فى تأليه الوالدين والأسلاف، فى غابر الأزمان، وسبق أن أفضنا فى التدليل على وجهة نظرنا هذه فى اثنتين من أهم أعمالنا المنشورة، الأول كان بعنوان (الأضاحى والقرابين، الجذور الاجتماعية)، والثانى (القمر الأب أو الضلع الأكبر فى الثالوث)^(٦٦).

ومن ثم اكتسب (زيوسودرا) الألوهية والخلود، بعد أن خسر حياته فيما يبدو إيان محاولة إنقاذ بنيه، وقد أخذ

الساميون بهذه

الأسطورة لكن البطل حمل اسم (أوتنابشتم UTNABESHTEM) و(إثرا خاسيس ETHRA KHASIS)

^(٦٥) س. لامبرج كارلوفسكى: دلمون مدخل إلى الخلود، ترجمة كامل مصطفى اللحام، مجلة الثقافة العالمية، وزارة الإعلام الكويتية، مارس ١٩٨٣، ص ١٠٤.

^(٦٦) سيد القمنى: (الأضاحى والقرابين، الجذور الاجتماعية)، فكر للدراسات والأبحاث، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة عدد ١١، و(القمر الأب أو الضلع الأكبر فى الثالوث) مجلة الكرمل، نيقوسيا، عدد ٢٦.

و(تجنوح TAGNOAH)، لكن الأسطورة المصاغة لبطولة (تجنوح)، دخلتها عناصر من قصة الخلق، فقالت إن (تجنوح) لم يستمر في هذه الحياة الخالدة، بعد أن خسرها، لما أكل من فاكهة محرمة^(١٧)، ولنلاحظ القرب الزماني لأسطورة (تجنوح) من وقت ظهور التوراة، حيث اختصر فيها (تجنوح) إلى (نوح)، الذي تقول التوراة إنه عاش عمراً مديداً بلغ حوالي تسعمائة وخمسين عاماً، وهو يكاد يكون ترديداً لمعنى الخلد الألفى، الذي ينقطع فجأة بالأكل من الثمرة المحرمة في القصة الأصلية (تجنوح) (تكوين ٦-٩).

وقد استند الباحثون إلى مثل هذه الأساطير ليقطعوا بأن السومري القديم لم يعتقد في حياة خالدة من بعد الموت، وأن الساميين قد تابعوهم في ذلك، وهذا في رأينا فهم خاطئ للمسألة من أساسها، لأن الخلود الذي قصدته تلك الأساطير كان مطلباً لديمومة الحياة في هذه الدنيا، ورفض السومريون الاعتقاد في أن إمكانية تحقق ذلك أمر منطقي وعقلاني، رغم رغبتهم الواضحة فيه، أما الاعتقاد في حياة أخرى بعد الموت في عالم آخر، فهو أمر مقرر لدى السومريين ولا يجادل بشأنه مكابر، ولا يقبل شكاً أو جدلاً، لكنه

لم يأخذ خطه التطوري الذي أخذه عند المصريين، فلم يعتقد السومريون بعودة الموتى في شكل بعث جديد ولا في ثواب أو عقاب، وكل ما في الأمر أن الموتى يرحلون جميعاً إلى عالم آخر، وهو في ملحمة (جلجامش): «البيت الذي لا يعود داخله»^(١٨)، في عالم تحت أرضي، خالد، لكن ليس فيه ما يبهج النفس.

وأطلق السومريون على عالمهم تحت أرضي كلمة (كور KUR)، وكانت هذه الكلمة في الأصل، تدل على وحش تخيلوا مسكنه تحت سطح الأرض، اختطف إلهة أنثى أرضية هي (إيرشكيجال)، وأخذها لتعيش معه كزوجة في العالم تحت أرضي، وصارا هناك سيدين للعالم تحت أرضي الرهيب^(١٩).

(١٧) ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، الإدارة الثقافية بالجامعة العربية، ط٣، ١٩٦١، مج ١، ج ٢، ص ٣١.

(١٨) ساندروز: سبق ذكره، ص ٩٢.

(١٩) السواح: سبق ذكره، ص ٢٨.

وأتصور أن الكلمة (كور) تحولت من دلالة على الوحش السفلى، إلى الدلالة على العالم الأسفل عموماً، نتيجة تصور أن العالم السفلى يتخطف الأحياء عن الأرض، لينزلهم موتى إلى باطنه، كمن يلتهمهم، أو أن (كور) كان يتخطفهم من الدنيا الأرضية، وبذلك يكون بداية لفكرة ملاك الموت السامى (عزرائيل).

وفى إحدى مناحات الإلهة (إنانا INANA) على حبيبها (تموز DAMUZI) نجد للعالم التحت أرضى اسماً آخر هو (آدن، أو أدين، أو الدين EDIN) فهو عالم الدين والكلمة (EDIN)، فى الأصل تعنى السهل^(٧٠).

وقد اهتم السومريون بالموتى، وزخرت قبورهم بالمتاع والطعام والشراب. ويبدو أنه كان يقصد انتفاع الميت بهذا المتاع، لذلك ربما اعتقدوا بعودة روح الميت بين آن وآخر من العالم التحت أرضى إلى القبر وهو ما افترضه (نجيب ميخائيل)^(٧١) لكن ربما كان لوضع المتاع سبب آخر، وجائز أنهم اعتقدوا ببقاء الميت فى قبره حياً لفترة محددة، قبل هبوطه إلى العالم التحت أرضى، مما يجعله محتاجاً فى هذه الأثناء للطعام والشراب. علماً أن حكام سومر قبل عهد العاهل (أورنامو) كانوا يصطحبون معهم عند الموت مقتنياتهم وحاشيتهم من بشر، بأن يتجرعوا السم ليهبطوا بصحبة سيدهم إلى عالم تحت الأرض^(٧٢).

وقد لوحظ اعتقاد السومريين أن أعظم شر يمكن أن يلحق بالميت هو عدم دفنه وفق تقاليد طقسية محددة، لأنه فى هذه الحالة سيتحول إلى روح شريرة تجوس فى الأرض تؤذى الأحياء، ويبدو أن هذه الفكرة صياغة كهنوتية قصد منها الكسب ليس أكثر، وهو ما يستنتج من المثل السومرى الساخر: «أغلى شىء فى لجش هو أن تموت»^(٧٣) مما يشير إلى ارتفاع أجور الكهان لممارسة عملهم فى طقس الدفن ومغالاتهم فى ذلك.

(٧٠) د. فاضل عبد الواحد: عشائر.. سبق ذكره، ص ١٦٩.

(٧١) د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص ١٧٧.

(٧٢) كريمير: السومريون.. سبق ذكره، ص ١٧٣.

(٧٣) د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص ١٧٨.

أما الحياة في العالم تحت أرضي، المحاط بأسوار سبعة لكل منها باب واحد^(٧٤)، يحكمه (كسور) وزوجته (إيرشكجال) مع معاونين من المردة والجن، فلها قواعد، أهمها العري التام، فالميت يدخله عارياً كما ولد عارياً، وهو ما نفهمه من أسطورة (نزول إينانا إلى العالم السفلي)^(٧٥)، وإن كان سينال بدل الملابس ريشا ينبت على جسده كالطيور^(٧٦)، لكن للأسف، ليس في هذا العالم ميزة لصالح على طالح، فالكل فيه في الرغام والطين والظلام الأبدى سواسية الرفيع فيه كالوضيع^(٧٧).

وهكذا يتضح أنه ليس ثمة علاقة محددة بين هذا العالم تحت أرضي وبين عالم الآلهة الخالد الدلموني، وإن صفة الأبدية في كليهما لا تعني أبداً وجود قاسم مشترك بينهما، بل إنه ليس هناك أية علاقة بين صنفَي الآلهة الدلمونية وبين الآلهة تحت أرضية.

(٧٤) كريم: السومريون.. سبق ذكره، ص ١٧٨.

(٧٥) كريم: الموضع نفسه.

(٧٦) د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص ١٧٨.

(٧٧) جيمس هنري برستد: انتصار الحضارة، ترجمة د. أحمد فخري، مكتبة النهضة المصرية، دت، القاهرة، ص ١٧٨.

ملحوظة: المصادر: لويد تشايلد، شيسنو، غود ولييه، التكريتي، فرانكفورت: Royaut e. و The Birth.. أخذناها نقلاً عن: د. عبد الرضا الطعان في كتابه: الفكر السياسي للعراق القديم، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨١، والكتاب ذو فضل لا ينكر لفهم أبعاد الفكر السياسي في العصر السومري.

الباب الثاني

سفر التكوين البابلي

تأسيس

إذن استطاع الساميون المهاجرون، أن يصبحوا أصحاب السيادة في كافة بقاع الهلال الخصيب (بلاد الرافدين، سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن)، حتى لم نسمع شيئاً عن سبقهم هناك، لكنهم فيما يزعم الباحثون –

ولنا تحفظنا - كانوا أول أمرهم عالية على ثقافات أصحاب المنطقة الأصليين، ثم تمثلوا هذه الثقافات، وعبدوا أربابها، ومارسوا نظمها وعاداتها وتقاليدها، وأحياناً مزجوا بين ما حملوه من لغة وثقافة في بيئاتهم الأصلية، وبين الجديد في المواطن الجديدة. والباحثون يؤكدون أن أهم ثقافة أثرت في هؤلاء المهاجرين الوافدين هي الثقافة السومرية، التي حفظت داخل التراث الديني السامي بعد ذلك، الذي تبلور نهائياً في الثقافة اليهودية، التي تضمها دفئا الكتاب المقدس (التوراة).

وقد أشرنا مسبقاً إلى أن أول الموجات من هذه الهجرات المتدفقة كوتت دولة في الرافدين، هي موجة القبائل الأكادية، التي بدأت بالاستقرار على حدود الدويلات السومرية، ثم تسللت إلى الداخل تدريجياً، وأخذ أفرادها يتقاطرون داخل المدن السومرية، ليعيشوا أول الأمر كمواطنين وافدين من الدرجة الثانية، وفي ظروف غير معروفة تمكنوا من الإمساك بزمام الأمور، بعد أن استطاع أحد أفيادهم أن يصل في مدارج نجاحه الوظيفي، إلى رتبة ساقى القصر الملكي في مدينة (كيش)، ثم وثب على العرش، ليعرفه التاريخ باسم الملك (شاروكين SHARUKEN) أى الملك الشرعى أو

الصادق، وعرفته تواترات التاريخ باسم (سرجون الأول)، الذى تعصب لبني جلدته الساميين، وبالاعتماد عليهم تمكن من أن يجعل نفسه ملكاً مطلق النفوذ وأن يوحد دويلات سومر في دولة واحدة، هي الدولة الأكادية، التى استمرت ما يقرب من مائتى عام (٢٣٤٠ - ٢١٨٠ ق.م)، التى كانت أول المراكز القومية المركزية فى تاريخ الرافدين.

و(سرجون) هو صاحب أول قصة عن الإلقاء في اليم، فكتب عن نفسه سيرة كثيراً ما تردت بعد ذلك في سير أبطال الملاحم الشعبية، فقد ولدته أمه خفية وخيفة لأسباب غير موضحة، ووضعته في سلة من البوص أحكمت غطاءها بالقار وألقت به في الفرات، فاحتمله الماء، حتى انتشله فلاح اتخذه ولداً وعلمه الفلاحة، وكان كل ذلك تقديراً ريانياً حيث تدخلت العناية الإلهية في النهاية بشكل مباشر وسافر من أجل البطل الموعود، فشملته الإلهة (عشتار ESHTAR) برعايتها ثم بوأته ملوكية البلاد^(٧٨).

وبانهيار الدولة الأكادية استعاد السومريون قدراتهم وأقاموا لهم دولة موحدة (العصر السومري الثاني)، انتهت بدفقة سامية أخرى من القبائل العمورية (أو الأمورية أو الحمورية)، الذين أسسوا دولة بابل الأولى (١٨٨٠ – ١٥٩٥ ق.م)، وكان أشهر ملوكها (حمورابي) صاحب القوانين المشهورة (حوالي ١٧٢٨ ق.م).

ويتمسك الباحثون برأيهم في أن الثقافة السومرية استمرت تفعل فعلها بعد أن دخلت كنسيج أساسى فى ثقافة الساميين الذين استوطنوا البلاد، وتسربت إلى كافة الثقافات السامية فى جميع مواضع الهلال الخصيب، ويعلل (كريم) ذلك بقوله:

وجدت جميع شعوب آسيا تقريباً، كالأكديين والآشوريين والبابليين والحيثيين والكنعانيين والعماليين.. أن من مصلحتها استعارة الخط المسمارى، لغرض تدوين سجلاتهم وكتاباتهم الخاصة.. كانا يتطلبان تدريباً شاملاً فى اللغة والأدب السومريين، ولتحقيق هذا الهدف – كان المعلمون والكتاب من ذوى المعرفة، يستوردون بلا شك من

(٧٨) د. عبد العزيز صالح: سبق ذكره، ص ٧٦.

الأقطار المجاورة بينما كان الكتبة المحليون يشدون الرحال إلى بلاد سومر، للحصول على تعليم خاص في مدارسها ذات الشهرة الكبيرة، وكانت النتيجة انتشاراً واسعاً لبذور الحضارة والأدب السومريين، إن أفكار السومريين ومثلهم، كأفكارهم في الكون واللاهوت والأخلاق ونظام التعليم، تغلغت إلى درجة كبيرة أو قليلة

في أفكار وكتابات جميع شعوب الشرق القديم..^(٧٩).

^(٧٩) كريم: السومريون... سبق ذكره، ص ٤١٨.

دور الملك فى التكوين

استطاع (سرجون) إذن، ولأول مرة، أن يوحد مدن سومر فى دولة مركزية موحدة، يسودها عنصر سامى وافد، وكان ذلك إيذاناً بتحول فوضى الفرقة إلى نظام، فى جهاز إدارى واحد صارم، وخضوع كافة السلطات الاجتماعية المترتبة، لسلطة واحدة أمره ناهية، تتمثل فى شخص الملك الجديد، المالك لكافة الشركات المدنية السابقة، التى تحولت بسادتها البشر والآلهة إلى أتباع للسيد الجديد مطلق النفوذ، الذى تحول بدوره بالسلطة المجردة من القسر إلى سلطة باطشة، بعد أن تدهورت سلطة مجالس الشركات الأولى وقيودها على العاهل تدريجياً نتيجة للاتساع الهائل للدولة ليمسك الملك المتحرر النفوذ بكل السلطات، وفى الدولة السرجونية، تحرر الملك تماماً من نفوذ أى مجالس شعبية، وأصبح القسر والبطش الأسلوب الأسرع فى الوصول والتأثير فى البقاع المترامية الأطراف، لتحقيق مآرب الدولة الموحدة، إزاء طوارئ لا تحتمل انتظار الرأى الشعبى فى دولة واسعة، وتم تمثيل الكل فى ذات الحاكم، والإله الذى ساد بسيادة هذا الحاكم، ومن ثم أخذ الإله يتحول عن صورته الرحيمة القديمة كأب بدائى للمشارك، ليتحول إلى طاغ طغيان الملك، كلمته نافذة نفاذ كلمة الملك، عصيانها قد يدمر الدولة أو يؤخرها على المستوى الإنسانى، فهى خيانة عظمى، وعصيانها على المستوى الإلهى كفر وإثم عظيم، ومن ثم أصبحت كلمة الملك والإله واحدة، لا راد لها ولا لقضائها، فتحوّلت القدرة الإلهية من الفعل بالعمل، إلى الفعل بالكلمة، وظهر لأول مرة دور الكلمة الإلهية فى التكوين الرافدى، على ما سنرى بعد قليل.

المهم أن الساميين الوافدين تركوا الآلهة السومرية على حالها لكن مع تبديل في أسمائها إلى أسماء سامية، ومع بعض التغيير في الأدوار والوظائف، فظل مجمع السبع مقررة المصائر قائماً وكذلك مجمع العظام الخمسين، لكن بعد أن توارى (آن) زعيم السبع مقررة المصائر، ليحل محله (إيل) أو (إل) السامى أما الأرض (كى) فأصبح (أرد ARD)، كذلك (أوتو) الشمس تم تعديله إلى (شمش)، و(نانا) القمر باعتباره الإله جميل الصورة الزين، إلى (سين)، والزهرة (إينانا) إلهة الجنس الشبقة العاشقة دوماً للعشرة والمعاشرة الجسدية، أصبحت (عشتار) من العشرة والتعشير (أى الجماع والحمل)، بينما تحول (أنليل) إلى (إليل) خلال الدولة الأكادية، ثم أزاحه إله الدولة البابلي الصاعد (مردوخ MARDUK) نهائياً، واستولى على صفاته ومناصبه، ثم لم يكف بذلك، بل اقتنص كل اختصاصات الآلهة العظام الخمسين، ولما يمض وقت قصير حتى تمكن من الاستيلاء على اختصاصات باقى الآلهة، وحتى دور (آنكى) الأب الأول، سلب منه مبدئياً على يد إله جديد هو (آيا EA)،

ثم أخذه منه (مردوخ) باعتباره فى الميثولوجيا البابلية ابن (آيا) ووريثه، أو الابن الذى فاق أباه قوة وحكمة.

وفى ذلك يقول (عبد العزيز صالح): إنه قد «انتفع البابليون ببعض عناصر الفكر السومرى، عن أصل الخلق المادى والمعنوى فى دنياهم، وخرجوا بنظرية عن نشأة الوجود، جعلوا ربهم قطب الدائرة فيها»^(٨٠)،

(٨٠) د. عبد العزيز صالح: سبق ذكره، ص ٤٧٩.

ويضيف (بوتيرو): «إن البابليين لا يبدو أنهم افترضوا انعداماً كلياً للأشياء كأصل الوجود، بل افترضوا فوضى وعدم انتظام شامل، وبهذا فإن الكون لا يبدأ بخلق.. لكن يبدأ بتظيم ما هو في حالة فوضى»^(٨١).

وقد وردتنا أسطورة شبه متكاملة للتكوين البابلي، في الملحمة المسماة (إنوما إيليش Enuma Elish) التي تعنى (في العلا عندما) أو (عندما في العلا)، وقد دونت في سبع لوحات، يعود تاريخ كتابتها إلى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وتؤكد أن مبعث الفوضى الكونية الأولى كان يعود إلى سيادة إلهة أنثى عريضة قديمة، هي الإلهة (تيامت TIAMAT) ولنستمع إلى (بوتيرو) يسرد علينا موجزاً لهذه الملحمة، فيقول:

في الأسطورة الشهيرة للخليقة، المسماة إنوما إيليش.. التي ألفها علماء الدين في بابل لتعظيم الإله مردوخ.. في الأصل لم توجد سماء ولا أرض، لكن فقط مياه في حالة من الفوضى، مكونة من إلهين أصليين، اختلطا مع بعضهما، هما الأبسو، والموموتيامت.. ونتيجة اندماج هذين الإلهين.. خرج الإله آن، الذي أولد أيا على شكله، والإله أيا قضى على الأبسو لأنه أراد تدمير نسله، وأولد مردوخ، وتبع هذا الحدث ثورة تقودها تيامت ضد الآلهة انتقاماً للأبسو، وتحضر لمعركة مخيفة وتجهز مجموعة من الوحوش الكاسرة.. ويرفض الإله أيا الاشتراك وخوض الصراع ضد تيامت ويقبل الإله مردوخ النزال، للحصول على السلطة العليا.. ويجرى النزال وجهاً لوجه، مردوخ ضد تيامت، وينتصر عليها، ويسجن جيشها المخيف ويقسم جسدها إلى نصفين، وينفخ فيه الهواء ويعمل من نصف جسدها

^(٨١) بوتيرو: سبق ذكره، ص ٩٨.

العلوى – الذى يرميه إلى الأعلى – السماء، ومن النصف الثانى.. الأرض.. وينظم بذلك

مردوخ القبة السماوية بكل نجومها، التى

حاز عليها بعد نضال عنيف فى تنظيم عالم الآلهة، ويتوج، ويحتفل به كسيد للآلهة

السماوية، وعلى الأرض^(٨٢).

إذن: كان فى الأصل غمر مظلّم من الماء، ذكر هو الأبسو (عرفناه باسم آنكى أو إنسى السائل المخصب)، والمومو (أى الماما أو الأم الكبرى) تيامت، (وواضح لصق اسمها من تى + أم = تيام = الأم تى)، وبتلقيح الأبسو كسائل مخصب للأم تيامت، جاء الإله السماء (آن) وولد (أيا) الذى قضى على (أبسو) لأنه أراد تدمير نسله (ولنلاحظ الرمزية هنا: أيا إله حل محل الإله أبسو كإله للسائل المخصب فى الثقافة السامية الغازية محل الثقافة السومرية. أما لماذا قضى أيا على أبسو، فلأن أبسو إله سومر، أراد تدمير نسله أيا السامى؟).

ثم ولد (أيا) ابنه (مردوخ) إله الدولة والملكية المركزية ونتيجة مقتل السومرى (أبسو) قامت الأم الإلهة تطالب (أيا) السامى بدمه، وهنا يقوم الإله الابن (مردوخ) بالصراع ضد (تيامت) ليحصل على السلطة العليا.

ولنفهم المعنى الأخير (لكى يحصل على السلطة العليا)، نستعين مباشرة بلوحات (الإينوما إيليش) فنجدها نقول: إن الآلهة وهى تجد نفسها مهددة من الأم البحر (تيامت) تلجأ إلى مردوخ أحدث الآلهة، إله الدولة الجديدة، لكن (مردوخ) يستفيد من ذلك، ليتجاوز سلطة مجلس السبع مقررة المصائر الخالقة، والخمسين العظام فيقول:

(٨٢) نفسه: ص ٩٧، ٩٨.

إذا كان عليّ أن أكون بطلكم

وأن أقهر تيامت، وأنقذكم

اجتمعوا إذن

وأعلنوا عن سلطتي العليا

اجلسوا حقاً فرحين

في بشو كينو

والتركوني أحدد مثلكم المصير

وذلك عن طريق:

الكلام الذي ينطق به فمي

وبهذه الطريقة

لن يكون بالإمكان

أن يتغير شيء مما أقرر

الأمر الذي أعطيه

لا يُرد، لا يتغير

وفعلاً

أقاموا له عرشاً يليق بأمير

وجلس يتراًس وهو يواجه آباءه

أنت الأكثر تمجيداً بين كبار الآلهة

إن ما تقرره لا يعارض

إن كلمتك الأمرة هي كلمة أن

منذ اليوم

لا يكون ما تنطق به عرضة للتغيير

نطقك يندو الحقيقة

وأمرك لا يحتمل شكاً

وقالوا لبكرهم مردوخ:

افتح فمك

تتلاشى قطعة القماش

تكلم ثانية

تعود القطعة كما كانت..

ولما رأى أباه ثمرة كلمته

قدموا له الخضوع في فرح

قائلين: من دونك ملك..

أيها السيد:

احفظ حياة من يؤمن بك

أيها السيد:

انزع حياة الإله الذي يضمركم

مر بالغرق، أو بالخلق

يكن ما تأمر به^(٨٣)

وهكذا ظفر (مردوخ) بالسلطة المطلقة، وتخلي له مجلسا الآلهة عن سلطانهما، ليصبح سيداً أوحداً، معبراً عن سلطة الملك البابلي، في دولته المركزية الواسعة، ويؤكد لنا ذلك، طقس سنوى كان يقوم فيه الملك بتمثيل دور (مردوخ) في مسرحية دينية، يحارب فيها (تيامت) وجيشها حتى يقضى عليها^(٨٤)، ممثلاً بذلك وقائع سفر التكوين، وقد ذكر هذا الطقس في أكثر من نقش، إضافة إلى أننا نتأكد من مصداقية هذا الربط الذى نفترضه بين مردوخ والملك، بالنظر إلى ما ورد فى الأسطورة ذاتها، فالآلهة تقول:

لقد خالصتنا الآن أيها الإله

فماذا ستكون هبتنا لك؟

(إن الهبة ستكون هى تثبيت الملوكية، انظر النص:)

دعنا نبني عرشاً

مأوى لإقامته؟!^(٨٥)

ولا يكتفى (مردوخ) بذلك، كما لم يكتف الملك بمجرد عرش، بل يسلب (مردوخ) الآلهة العظام الخمسين

فى المجلس سلطاتهم، أو كما تقول الأسطورة:

أما نحن

فمهما أطلقنا عليه

^(٨٣) د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص ٢٩٤، ٢٩٣.

^(٨٤) فاضل عبد الواحد: عشتار... سبق ذكره، ص ١٣٤.

^(٨٥) سليمان التكريتي: أساطير بابلية، مطبعة النعمان، النجف، العراق، ١٩٧٢، ص ٥٩، ٧٣.

فهو إلهنا

ألا فلنعمل أسماءه الخمسين!!^(٨٦)

وهكذا يستولى الملك بدوره على سلطات المجالس شبه الديمقراطية الأولى، الباقية من نظام المشتركات المدنية، بعد توحيدها في دولته المركزية، مع ملاحظة أن هذه التطورات تعبير في الوقت ذاته، عن سيادة مطلقة للإله الذكر، تمثلت في الفعل والخلق بمجرد الكلمة، كما تمثلت في لوحات (الإنوما إيليش) حيث يقوم مردوخ بما قام به (إنليل) من قبل، لكن (إنليل) الذي ظل زماناً طويلاً إلهاً لطيفاً لطف طبعه (الهواء)، فرغ أباه أن عن أمه (كي)، في مياه الغمر الأولى (نمو)، أما مردوخ فكان عنيفاً قاسياً، بعد أن حاز إمكانات أصبحت ضرورية، لحفظ الاستقرار في دولته السماوية، وضرورية للملك الأرضي لذات الغرض، وهو رأس دولة كبرى مترامية الأطراف، تحتاج حزمًا وقوة وعنفًا، لذلك قام (مردوخ) وبقسوة ينفخ (تيامت) بالهواء، ثم:

شقها كما تشق الصدفة قسمين

وثبت نصفاً جعله سقفاً سماء^(٨٧)

شطر جسدها شطرين،

أعلاهما تثبته في السماء

خلق منه السماء

والأسفل تثبته في الأرض

خلق منه الأرض^(٨٨)

^(٨٦) د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص ٣٠٤.

^(٨٧) نفسه: ص ٢٩٨.

^(٨٨) د. أنيس فريجة: ملاحم وأساطير من الأدب السامي، دار النهار، ط٢، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٠٦.

ويعقب موسكاتى هنا بقوله: (وبذلك قسم المياه الأولى إلى مياه فوق الجلد Firmament وأخرى تحت

الجلد)^(٨٩).

ونتابع الإينوما:

صنع مردوخ منازل للآلهة

خلق الأبراج

ثبتها فى أماكنها

حدد الأزمنة

جعل السنة فصولاً

ولكل شهر من الاثنى عشر

ثلاثة أبراج

حدد الأيام بأبراجها..

وإلى الشرق

وإلى الغرب

فتح بوابة

وسلط القمر على الليل

وجعله زينة فى الليل

به يعرف الناس مواعيد الأيام^(٩٠)

^(٨٩) موسكاتى: سبق ذكره، ص ٨٥.

وبعد أن رتب (مردوخ) في هذا الماء، أو الجلد السماوى، كواكبه ونجومه، والننيرين الكبيرين: الشمس والقمر، هبط إلى النصف الثانى (الماء والأرض)، وهناك:

مردوخ على سطح الماء

ظفر حصيراً وصنع شيئاً من التراب

وخلطه مع الحصير

وهذا كون لوحاً صلباً

فوق المياه

هو: الأرض^(٩١)

لكن سماء (مردوخ) لم تكن سماء واحدة، وأرضه لم تكن أرضاً واحدة إنما كانت السماء سماوات، فهى سبع سماوات طباقاً، والأرض أيضاً، طبقات سبع، أما فى أعلى السماوات، فقد ابتنى (مردوخ) لذاته العليا عرشاً يليق بجلاله، وبإطلاقية سلطانه^(٩٢).

ولما انتهى (مردوخ) من التكوين الكونى، اجتمعت الآلهة واحتفلت بتتويجه سيداً للكون، وبنوا له مدينة (بابل) أو (باب - إيل) أو (باب - الإله) لتكون مقراً لمثله على الأرض، وفى وسطها بنوا له معبد (الإيساجيل Esag El) وترجمته الحرفية (مقر رأس الإله)^(٩٣)، مما يشير إلى أن (مردوخ) قد تعرض للقتل والذبح، باعتبار المعبد مدفناً للرأس فقط، مما يربطه بألهة الفداء الشهيدة وعبادات الخصب والرى، مثل (أوزيريس OSIRIS)

(٩٠) فريجة: ملاحم... سبق ذكره، ص ١٠٧.

(٩١) بوتيرو: سبق ذكره، ص ٩٦.

(٩٢) د. أنيس فريجة: دراسات فى التاريخ، دار النهار، ط١، بيروت، ١٩٧٤، ص ٥١.

(٩٣) د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص ١٥١.

المصرى و(أدونيس الفينيقي)، الذى هو أحد البعول الكنعانية، و(آتيس ATIS) الفريجى، و(ميتھرا METHERA) الفارسى، و(يسوع) العبرى، و(الحسين) العربى.. إلخ، وقد وجدنا أن أسطورة إله الرى الذبيح قد لحقت بالإله (مردوخ)، وكانت تقام له سنوياً، طقوس واحتفالات للتذكرة بعودته حياً من بين الأموات، فى عيد للقيامه مجيد، وساعتها يتلو الكهنة أمامه أسماء الخمسين، إعلاناً عن حيازته كل ألقاب السيادة. وأهم هذه الألقاب لفظ الجلالة الاسمى (إل) أو (إيل)، ولقب (بعل) أى سيد الآلهة أو ربها، ويفيد السيادة عموماً، وغنى عن البيان أن الملك البابلى وهو يقوم بدور (مردوخ) فى هذه التمثيلية الدينية، كان يحظى سنوياً وبتكرار دورى وتكريس مستمر، باعتراف أعضاء كل المشتركات المنضوية تحت لوائه، بسيادته المطلقة، بعد أن حاز كل الأسماء وكل شارات السيادة، وكل رموز السلطان المرموز لها فى الأسطورة بالأسماء الخمسين.

وعليه فقد استولى الملك نهائياً على كافة شارات ومناصب آباء المشتركات، الذين بدأوا سادة بدائيين، ثم سادة لمشتركات معبديّة فمدينية، وانتهى أمرهم بالتسليم للملك القوى الصاعد، المتربع على عرش بابل، فأصبح هو الأب الواحد الأوحى للجميع، ولا أب يدانيه فى إطلاقية النفوذ، ويبدو أن بداية ظهور الأب الأرضى المتفوق هى التى أفرزت رباً متفوقاً عن بقية الأرباب، كخطوة تطورية فى السماء أفرزها جدل المجتمع على الأرض، مما ميز بالتدرج إلهاً عن سائر الآلهة، استطاع بعد ذلك أن يلغيها ويجعلها آلهة تابعة، لعدم قبول رفيقه السيد الأرضى المستبد بوجود أى منافسين له.

ومن هنا أصبحت كلمة السيد الأرضى المتربع فى بابل لا راد لها، نافذة بقوتها الذاتية، لأنها صادرة عن فم الأب الأعظم، الذى تمثل كلمته حكمة الإله (مردوخ)، يكفى أن تكون نطقاً باللسان فيكون كل المراد محققاً فى الواقع.

وبذلك تركت الفكرة السامية عن الكلمة الملكية الفاعلة بذاتها، أثراً في عموم فروع اللغة السامية، وأصبح الأمر (كُن) من الفعل يكون أى يوجد، (ويكون) أى يخلق، والعالم الموجود بكليته إنما هو أحد اشتقاقات الكلمة، فهو (الكون)، فامتلك الأمر (كُن) قدرة سحرية لغوية تؤدي بمجرد نطقها من قبل شخص مؤهل لها (ملك، إله، ساحر، كاهن) إلى (الكينونة)، أى الوجود الواقعي المتحقق (كياناً) عياناً.

لكن الأمر الواجب إيضاحه هنا، هو أن (مردوخ) لم يخلق بالكلمة إنما بالعمل اليدوي، فقد شق (تيامت) كما تشق الصدفة، ورفع السماء وحط الأرض... الخ، بينما اقحمت مسألة القدرة السحرية للكلمة الفاعلة (كُن) إقحاماً في الإينوما إيليش:

أقاموا له عرشاً يليق بأمير

وجلس يتراًس وهو يواجه آباءه

أنت الأكثر تمجيداً بين كبار الآلهة

إن ما تقرره لا يعارض

إن كلمتك الأمرة هي كلمة أن

منذ اليوم

لا يكون ما تنطق به عرضة للتغيير

نطقك يغدو الحقيقة

أمرك لا يحتمل شكاً!!

واضح أن النص هنا ليس تعبيراً عن مطلب الملك الأرضي، ليصبح سيداً مطلق النفوذ، إزاء طواريئ اكتسبت صفة الديمومة، بحيث تنفذ أوامره دون مناقشة، لذلك نلاحظ أن كل ما جاء عن الكلمة الخالقة في الأساطير

لا يتعلق فعلاً بما حدث لتكوين الكون وإيجاده، إنما كان تجربة كتجارب الحواة وألعابهم، قصد بها تأكيد تبعية

الأتباع للسيد، أنه (لو أراد) شيئاً بالكلمة سيحققه:

ووضعوا في الوسط قطعة قماش

وقالوا لبرهم (مردوخ): افتح فمك

تتلاشى قطعة القماش

تكلم ثانية تعود القطعة كما كانت

ولهذا

قدموا له الخضوع في فرح قائلين

مَنْ دونك ملك؟

وإعمالاً لكل ما سبق، يمكننا الزعم أن دخول فكرة الكلمة الخالقة إلى سفر التكوين، بدأت تعبيراً عما وصل إليه التطور السياسي في المجتمع الإنساني، وتعبيراً عن وجوب الطاعة الكاملة غير المشروطة للعاهل الذي لا ترد كلمته ولا تتبدل، والتي يجب تنفيذها الفوري مهما كانت غير مقبولة أو غير معقولة، ومع ذلك واصلت فكرة الكلمة الخالقة صعودها الخيالي في اللغات السامية، ليصبح للأمر (كُنْ) دلالات القوة الفاعلة في الكلام لكنها على المستوى الفعلي لم تكن ذات دور فاعل حقيقي في عملية الخلق، التي تمت بموجب (الإينوما إيليش) البابلية.

وظل فكر الساميين الديني بعد ذلك، يحتفظ بكلتا الفكرتين جنباً إلى جنب: الخلق بالعمل اليدوي والفعل البدني من جانب الإله الخالق (يفصل السماء عن الأرض، يخلق الإنسان بيديه، يكتب ألواح الشريعة التوراتية بإصبعه... الخ) وفي الوقت ذاته، يمكنه أن يخلق بمجرد الكلمة تعبيراً عن سلطانه اللامحدود، وقدرته اللانهائية،

لكن يبدو في مختلف نصوص الديانات السامية، أن الأمر (كُن) كان مجرد إمكان غير متحقق (حتى الآن)، أو هو استعداد إلهي موقوف لإثبات القدرة المطلقة فقط، فهو استعداد بالقوة لم ينتقل إلى الفعل، وربما ينتقل من القوة إلى الفعل حين يشاء، لكنه لم يعد الآن مجدياً، بعد أن وجد الكون فعلاً بالطريقة اليدوية التصنيعية.

ولو نظرنا لتصوير (مردوخ) في النقوش، سنجد صورة مطابقة للنقوش الملكية، نقش لرجل يلبس تاجاً مخروطياً عالياً، تزيينه وريعات، له لحية طويلة مصففة بتجاعيد مصطنعة على غرار صنعة الحلاق بالقصر الملكي، ومثل الملك كان (مردوخ) يرسل شعره خلفه، بينما يرتدى ثوبا طويلا مرصعا بالنجوم، يضم يسراه إلى صدره، وهي تقبض على رموز السيادة : (الدائرة والعصا)^(٩٤) وهما فيما نرى رمزين لحيازة السيادة على مجتمعين ونظامين: الرعوى الذكري والزراعي الأمومي^(٩٥)، وإمساكهما إمساك بقدره منح الحياة وإعطائها، فالعصا عضو الذكورة، والدائرة فرج الأنثى.

الدم روح الإنسان:

يقول الباحث العراقي (فوزي رشيد): إن «قصة الخليقة البابلية، قد تضمنت بين سطورها وصفاً لوضعية الآلهة، بعد أن كتب عليها العمل، وكيف أن تلك الوضعية كانت لا تختلف عن وضعية الإنسان، بعد خلقه..

عندما كانت الآلهة مثل البشر

(وتعنى لدينا: عندما كان الملوك كبقية الناس)

توجب عليها العمل

^(٩٤) بوتيرو: سبق ذكره، ص ٤٤.

^(٩٥) للمزيد حول تقسيمنا للنظام الاجتماعي الغابر إلى رعوى يرتبط بسيادة الذكر، وزراعي يرتبط بسيادة الأنثى، ارجع إلى بحثنا: الأضاحي والقرابين والجذور الاجتماعية، سبق ذكره.

وكانت سلة عمل الآلهة كبيرة

وكان عملهم صعباً

لذلك تعددت الشكوى..

ويعنى هذا أن الإنسان قد خلق، من أجل أن يقوم بتزود الآلهة بالطعام والشراب والسكن، وهذا ما قاله (فوزى رشيد)^(٩٦) مع تعليقنا بين قوسين. لكن مع سياق فهمنا للأمور، نرى القصة صدى لواقع حدث، بعد أن تفرغت فئة للحكم، وتحررت من عناء العمل، لذلك تردد القصة ما سبق ورأيناه فى التكوين السومري، حيث انقسم مجتمعهم الإلهي إلى صنفين من الآلهة: آلهة عاملة أو شغيلة، وآلهة متفرغة للخلق وإدارة شئون الكون، لكن التكوين البابلي قام هنا بصياغة جديدة فأوضح أن الآلهة خلقت البشر ليحملوا هم أعباء العمل، لتتفرغ الآلهة لإدارة شئون الكون والبشر، وكان أكبر الآلهة (مردوخ) الذى يمثله على الأرض ملك بابل، وما على أفراد المجتمع سوى السعى من أجل خدمته وراحته، وتقديم فائض إنتاجهم بين يديه.

ونعود إلى (الإينو ما إيليش) نستطلعها التفاصيل، فنقول فى لوحها السادسة:

ألا فليذكر الرعايا دائماً إلههم

وطبقاً لكلمته يهتمون بالآلهة

ألا فلتحمل القرايين

إلى آلهتهم وإلهاتهم

وبغير نسيان

فليعنوا دائماً برعاية آلهتهم

^(٩٦) رشيد: خلق الإنسان...، سبق ذكره، ص ١٨، ١٩.

ليستصلحوا أراضيتهم

ويبنوا هياكلهم

ليخدم ذوو الشعور السوداء

آلهتهم^(٩٧)

ونستكمل من ملحمة (اتراخاسيس) بدءاً من السطر (١٧٩) بالعمود الرابع، الذي يقول:

(بيليت إلى) كانت حاضرة الرحم

ليتها تخلق الإنسان الأول

لكي يحمل هذا الإنسان سلة عمل الآلهة

نادوا مولدة الآلهة الإلهة (مامى) الحكيمة

وسألوها:

أنت الرحم خالقة البشر

اخلقى الإنسان الأول

من أجل أن يحمل النير..

سلة عمل الآلهة يجب عليه حملها

فتحت الإلهة (ننتو) فإها

وخاطبت الآلهة العظيمة:

^(٩٧) د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص ٣٠٤.

ليس بمقدورى أن أفعل ذلك
إن القدرة بيد الإله (آنكى)
إذ بإمكانه أن يجعل كل شيء طاهراً
فتح الإله آنكى فاه
وخطب الآلهة العظام:
فى اليوم الأول، والسابع،
والخامس عشر من الشهر
سأقيم طقوس الاغتسال
وسأقيم الحمام
وليزبح الآلهة إلهاً من بينهم
وبعد ذلك يطهروا أنفسهم فى الحمام
وعلى الآلهة (ننتو) أن تمزج الطين
مع لحمه ودمه
وليت الإله والإنسان يمتزجان سوية
فى الطين دعونا نستمع إلى الطبل
من أجل مصير الأيام القادمة
وبسبب لحم الإله
نود أن يسكن شبح الموت
جسم الإنسان

ولنذكر هذا الشبح الأحياء بالموت

ماداموا على قيد الحياة

ليت شبح الموت أن يوجد فى الإنسان..

ثم فتحت الإلهة (مامى) فاهها

وقالت تخاطب الآلهة العظام:

لقد عهدتم إلى عملاً فأكملته

ومادمتم قد ذبحتم إليها رغم قدسيته

فها أنا قد رفعت عنكم عناء أعمالكم الشاقة

وجعلت الإنسان يحمل سلة عملكم

وها أنتم قد وهبتم صراخكم للبشرية

وها أنا حطت عنكم النير

حررتكم من الواجبات

ولما سمع الآلهة كلامها

تراكضوا إليها وقبلوا قدميها

وقالوا:

فى السابق الإلهة (مامى) كنا نناديك

والآن: ليكن (سيدة الآلهة) اسمك^(٩٨)

^(٩٨) رشيد: خلق الإنسان... سبق ذكره، ص ٢٤-٢٥.

ولاستطلاع أمر هذا الإله الذى ذبح، نعود مرة أخرى إلى (إينوما إيليش) فتطالعنا:

قتل (كنجو)، قطعت شرايينه

سال الدم

ومن الدم، خلق الإنسان

ليعبد الآلهة، يخدمها^(١٩)

ولأن (إينوما إيليش) أكثر سامية من (إترام خاسيس) المتأثرة بالفكر السومرى أكثر، فإن (الإينوما)

تحاول إبراز دور (مردوخ) بفاعلية أوضح، فى عملية خلق الإنسان، فتقول:

بعد أن سمع الإله (مردوخ)

كلمات الآلهة

تحرق قلبه من أجل خلق الكمال

وعندما أخبر الإله (أيا) بقراره

وشرح له خطة العمل

التي رسمها فى ذهنه:

أريد أن يحضر لى الدم والعظم

أريد أن أخلق لوللو

الذى سيكون اسمه الإنسان

لأنى أريد أن ألقى عليه عناء الآلهة

^(١٩) فريجة: ملاحم... سبق ذكره، ص ١٠٩.

حتى تتعم هي بالراحة
وأريد أن أجعل طريق الآلهة
محاطاً بالإبداع..
يجب إحضار أحد إخوانك
لنذبحه ونصنع منه البشر
وليت الآلهة العظام تجتمع الآن
وتعترف عليه الآلهة
جمع الإله (مردوخ) الآلهة العظام
وبلطف أمرهم أن يقدموا المشورة..
سأضعكم الآن تحت القسم
وأطلب منكم الحقيقة
من منكم تسبب في نشوب الحرب؟
(تيامت)!
(تيامت) أثارها ونظمت الثورة.
عليكم بإحضار الذي تسبب
في نشوب الحرب
لأنى أريد أن أحمله وزرها
لتعيشوا أنتم في هدوء
(كنجو)

هو الذى تسبب فى نشوب الحرب
و(تيامت) أثارته ونظمت الثورة،
ربطوه

وجاعوا به إلى الإله (أيا)

وحملوه وزر جريمته

وسفكوا دمه

وعلى دمه خلق الإله (أيا) البشر

وحملهم عناء الآلهة

وتحررت هى منه

وعندما قسم الإله مردوخ

ملك الآلهة

آلهة الأنوناكى إلى قسمين

علوى

وسفلى (١٠٠)

وهكذا سجلت اللوحة السادسة:

إنه (كنجو)

هو الذى أثار الفتنة

(١٠٠) رشيد: خلق الإنسان...، سبق ذكره، ص ٢٥.

وحرص (تيامت) على الثورة

واشترك فى المعركة

فقيده

وأمسكوا به أمام (آيا)

ووضعوا عليه جريمته

وفصدوا دمه

وصاغوا منه البشر^(١٠١)

وعليه سجلت ذات اللوحة قول (مردوخ):

سأكلت العظم وأخلق اللحم

سأصنع إنساناً..

سيكون اسمه الرجل..

سيكلف بخدمة الآلهة^(١٠٢)

ولنقف الآن مع هذه النصوص، لنحاول معرفة علاقتها بواقع الأحداث، ولنبدأ مع مبتدأها:

عندما كانت الآلهة مثل البشر

(١٠١) د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص ٣٠١.

(١٠٢) نفسه: ص ٣٠٠.

توجب عليها العمل

فالنص يردد هنا صدى واقع أحداث المجتمع، قبل تفرد فئة بالحكم دون باقى الأفراد، عندما كان الجميع سواء فى العمل، ثم تطورت الأوضاع إلى تفرد البعض بالإدارة، واستيلائهم على فائض إنتاج الأفراد:

ألا فلينكر الرعايا إلههم..

ألا فلتحمل القرايين

إلى آلهتهم وإلهاتهم

وعلى باقى أفراد المجتمع الكد والعنت والكدر فى الأرض،

ليستصلحوا أراضيهم

وبينوا هياكلهم

وإن الربط بين العمل فى الأرض، وبين بناء الهياكل والمعابد، هو ترسيخ واضح لسلطان الملك المرتبط بفائض العمل، وبقدسيته كإله يستحق هذا الفائض بالحق الإلهى، ثم لتأمل أبيات ملحمة (إترام خاسيس)، التى يتضح فيها أثر تقديس الميلاد من أم إلهة، وهى فكرة أقدم:

(بيليت إلى) كانت حاضرة الرحم

ليتها تخلق الإنسان

(لنلاحظ أن القراءة الأصدق لاسم الإلهة بيليت إلى هو بعليت إيلى، أى البعلة الإلهة أو السيدة، أو سيدتى

البعلة)

وتظهر فى النص أثر مفاهيم عبادة الخصب والرى فى أصل الوجود والخلق بالميلاد من أم أولى، وهو بدوره أثر من عبادة الأم فى مجتمعات الخصب القديمة، وذات النظام الاجتماعى الأمومى الغابر، ويتضح ذلك فى النص:

نادوا مولدة الآلهة

الإلهة (مامى) الحكيمة

وسألوها:

أنت الرحم، خالقة البشر

والإلهة (مامى) هى التى عرفناها فى سفر التكوين السومرى، باسم (ننتى) أو (ننتو) وهو ما يردده نصنا الحالى لكن بعد التمازج مع الفكر السامى فى نظامه الأبوى الذكرى، الذى سلب هذه الأم قدرتها الذاتية على إنجاب الحياة وحدها دون معين، فىقول:

فتحت الإلهة (ننتو) فاهها

وخاطبت الآلهة العظمى

ليس بمقدورى أن أفعل ذلك

إن القدرة بيد الإله (آنكى)

لم يزل الإله (آنكى) حتى الآن فاعلاً فى أسطورتنا السامية المبكرة، ومن الضرورى أن يلقى ببذرة الخصب، أو السائل المخصب، حتى يتم التكوين المطلوب، لكن يدخل هنا عنصر جديد على المناطق الخصبة،

فقد تصورت هذه المناطق في فجر الفكر أن وجود البشر مسألة خاصة بالأم وحدها، خاصة أيام المشاع البدائي القديم، ولم يكن للذكر دور يمكن ملاحظته في عملية الحمل والوضع، كنتابح النقاء المرأة بأكثر من رجل، فتصوروا أن دم الحيض هو سر الميلاد، ومنه يتكون الجنين لدى المرأة دون معين، لكن دخول الثقافة الذكرية أدخل دوراً واضحاً للذكر في التكوين الإنساني، مع رغبة ملحة في إلغاء دور الأنثى تماماً، إلغاء لسلطانها.

وحتى يتم الخلق من الدم باعتباره المادة المعروفة لتكوين الجنين، وليس لديهم مادة أخرى يقبلها حسهم للتكوين المطلوب فاعتقد أنهم عمدوا إلى الدم كمادة لتكوين الإنسان. الذي إذا جرح سال منه هذا الدم الذي خلق منه حتى إذا نفذ دمه مات، لكنهم استبعدوا دم الأنثى واستبدلوه بدم ذكرى، وبما أن الذكر لا يحيض، إذن فليذبح؟! ومن هنا سجلت النصوص:

قتل كنجو، قطعت شرايينه

سال الدم

ومن الدم خلق الإنسان

وهكذا نظن الفكر الذكرى قد حقق سلطان فلسفته، ثم ضمته تفسيره لظاهرة الموت، فالإنسان يموت لأنه

تكون من دم إله ميت (بعد مزجه بالطين):

وبسبب لحم الإله

نود أن يسكن شبح الموت

جسم الإنسان

ولنذكر هذا الشبح الأحياء

بالموت

ماداموا على قيد الحياة

ليت شبح الموت يوجد فى الإنسان!؟

ثم ترى (الإينوما) الأكثر إيغالاً فى الطابع الذكرى، ومركزية السلطان، وجوب تقسيم المجتمع طبقتين:
طبقة تعمل، وطبقة تحكم وتدير، وهذا هو الكمال وتام النظام بعد الفوضى الكونية، والاجتماعية، الأولى، فنقول:

بعد أن سمع الإله (مردوخ)

كلمات الآلهة

تحرق قلبه من أجل أن يخلق الكمال

وقد حقق ذلك عندما

قسم الإله (مردوخ) ملك الآلهة

آلهة الأنوناكى

إلى قسمين

علوى وسفلى

أما لماذا؟ فهو ما يجب عليه النص بلسان (مردوخ):

أريد حقاً خلق الإنسان

لأنى أريد أن ألقى عليه عناء الآلهة!

حتى تنعم هي بالراحة

ومن ثم يبدو أن الملك الأرضي، قد سوغ استيلاءه على مجمع السلطات بشكل يعطيه تفويضاً مسن قبيل رؤساء المدن وحكامها، إبان عملية التوحيد والمركزة، كي يبدو هذا التفويض شهادة منهم وموافقة غير قسرية فيقول النص:

جمع الإله (مردوخ) الآلهة العظام

وبلطف أمرهم أن يقدموا المشورة

سأضعكم الآن تحت القسم

وأطلب منكم الحقيقة

من منكم تسبب في نشوب الحرب

(تيامت)!

(تيامت) أثارها ونظمت الثورة

ربما كان ذلك ترديداً لذكرى قديمة، إبان تداخل المجتمعين الذكري الأبوي والأنثوي الأمومي، وسيادة النظام الذكري، وربما كانت تيامت رمزاً للنظام الأمومي الذي غير بسيادة الذكر.

عالم آدم:

وهكذا بات واضحاً أن قصة التكوين السامية (أكدية أو بابلية) والتي اصطلاحنا على تسميتها (سفر التكوين البابلي)، لم تختلف كثيراً عن (سفر التكوين السومري)، بل رددت مفاهيم سومرية حول الآلهة وطبيعتها، مع إضافات وتعديلات تتلاءم مع التطور الذي لحق النظام الاجتماعي، الذي أرسى نهائياً دعائم حكم الذكر، وعبادة الذكور، وغنى عن الذكر أن ذات قصة التكوين، قد عرفت طريقها إلى التراث السامي في مختلف مناطق الهلال الخصيب، مع تعديل طفيف في التفاصيل دون الأصل، مع تغير خلق الإله الخالق وتصيب غيره بتغير السادات، فالإله (آشور) يأخذ دور (مردوخ) عندما تخضع الرافدين للأشوريين، بينما يكون لدى الكنعانيين هو (بعل)، الذي يقوم بمهمة الخلق التي قام بها البعل البابلي (مردوخ) و(إنليل) و(أنكى) السومريين.

وفي مصير الموتى، ظل العالم التحت أرضي قائماً في مختلف العقائد السامية وفي ذلك يقول (بوتيرو):

«بالنسبة للبابليين بصورة عامة فإن ما بعد الموت لم يكن مغرباً لهم.. وفي أسطورة نزول عشتار إلى العالم السفلي.. وردت تعابير غير شيقة أبداً عن حالة الموتى التعيسة.. إن طعامهم هو من الطين، إن غذاءهم هو من التراب، لا يرون النور أبداً، فهم يسكنون بالليل».

وحتى عشتار نفسها لم يكن لها القابلية أو الحق في الدخول بين هؤلاء إلا بعد أن نزعت كل ما يسترها..

قطعة بعد أخرى، وأصبحت على صورة العرى الكامل، الذي يستلزمه الذهاب إلى هذا العالم^(١٠٣).

ولهذا السبب كانت «الحياة بالنسبة للبابلي من أعظم وأكثر الآمال، ونعرف منذ العصر السومري أن الملوك والخاصة، الذين أقاموا المعابد وجهزوا الهدايا للآلهة، عملوا ذلك بكل الوضوح، خوفاً على حياتهم، حتى

(١٠٣) بوتيرو: سبق ذكره، ص ١٣٠.

تكون هذه الحياة طويلة الأمد، وهذا هو الهدف الذى ينشده الورعون والأقبياء من رجال الدين أيضاً، فتقديم القرابين للآلهة يطيل العمر»^(١٠٤).

ويشرح موسكاتى تطابق وجهة نظر البابليين والسومريين فى عالم تحت الأرض بقوله: إنهم اعتقدوا «أن روح الإنسان بعد الموت تنفذ من القبر إلى العالم السفلى أراو Arallu، وهى مدينة كبيرة يلفها الظلام والتراب، ويعيش فيها الموتى عيشة حزينة كئيبة، يشربون الماء القذر ويأكلون التراب، ولا يمكن التخفيف من هذا السبلاء إلا بالقرابين، يقدمها أصدقاء الميت وأقرباؤه،الذين لا يزالون على قيد الحياة»^(١٠٥).

ومن هنا يعقب (ديورانت) على فكرة البابليين عن العالم البابلى التحت أرضى بقوله: إن «فكرة البابليين عن الحياة الأخرى، كانت فى جملتها.. فكرة أموات منهم قديسون، وأنزال، ومنهم عباقر، وبلهاء يذهبون إلى مكان مظلم فى جوف الأرض»^(١٠٦).

هذا بينما يحيطنا (دولابورت) علماً باسم آخر لهذا العالم، إضافة إلى (أراو) فى قوله: «وبعد أن يعد الميت إعداده الأخير، يهبط إلى الأدمو، إلى الأرض الكبيرة، مأوى الظلمات.. إلى البيت الذى يدخله الداخل ولا يخرج منه، وهو كما تصفه رحلة عشتار.. موضع من الأرض تخيم عليه الظلمات، وتحيط به أسوار سبعة، لكل منها باب واحد، والموتى قد نبتت على جوانبهم أجنحة كأجنحة الطيور، يأكلون التراب ويتغذون بالرغام، هذه هى المملكة التى يتزعمها نرجال(عرفناه باسم كور عن السومريين)، والإلهة اللاتو (وتعنى اللات وهى مؤنث إل

^(١٠٤) نفسه: ص ١٣٢.

^(١٠٥) موسكاتى: سبق ذكره، ص ٨٠.

^(١٠٦) ديورانت: سبق ذكره، ص ٢٢١.

أو إيل).. التي تحت أمرها أرواح الطاعون والأمراض التي ترعى الموت، وتحول في المعتاد دون عودتهم إلى الأرض للإيقاع بالأحياء»^(١٠٧).

ولكن على ما يبدو أن ما طرأ من تطور في الأوضاع الاجتماعية على الأرض، انتقل إلى ما تحت الأرض، وإلى هناك انتقل التمايز الطبقي الناشئ عن قيام الدولة الملكية المركزية، فنشأ تمايز مماثل في العالم التحت أرضي، جاء في الصياغة السامية لملمحة جلجامش السومرية، وبالتحديد في اللوح الثاني عشر، حيث نجد في هذا العالم:

أمواتاً عظماء

وأمواتاً حقراء

أغنياء وفقراء

سعداء وتعساء^(١٠٨)

وتبقى هنا مسألة، تثيرها طبيعة اللغة السامية التي تعشقت فيها روافد متعددة، فدخلت البابلية ألفاظ سومرية لفظاً ومدلولاً، وتبدلت المعاني والألفاظ بين مختلف اللغات السامية نظروف الجوار والغزو، والعلاقات السياسية والاقتصادية وحتى الدينية، مما أدى إلى تشابك لغوي هائل وإن كنا سنحاول التعامل مع الإشكال في أسهل الحدود الممكنة: لقد سبق وعلمنا أن السومريين أطلقوا على عالم تحت الأرض اسم إدين Edin وتتطرق أيضاً الدين وأدن، وبما نعلمه عن الخلط القديم بين (الميم) و(النون)، يمكن أن تتحول (أدين) إلى (أديم)، ورأينا البابليين يطلقون على العالم التحت أرضي (آدمو) أو (آدم)، وبما نعلمه عن الخلط بين (العين) و(بسين) (الهمزة)

^(١٠٧) ك. دولاپورت: بلاد ما بين النهرين، حضارة بابل وأشور، ترجمة مارون الخوري، دار الروائع الجديدة، بيروت، ١٩٧١، ص ١٩٦.

^(١٠٨) بوتيرو: سبق ذكره، ص ١٣٢.

تصبح أيضاً (عدم) و(عدن) فيصبح عالم تحت الأرض هو عالم: أدن، الدين، أدين، أديم، أدمو، آدم، عدم، عدن (ولنلاحظ ارتباط المعنى القائم بين مختلف الأسماء فكلها تعطى معنى العودة إلى العدم والأصل وهو التراب أو الأديم، و آدم من تراب وإلى عدم أو إلى أديم يعود، واللفظ آدم لفظ سامى يدل على أب البشر، جاء فى النصوص الأوجاريتية المكتشفة مؤخراً،وهى لغة سامية فينيقية، وكما فى ملحمة (كارت ملك صيدون):

أب آدم ويقرب (أى ويقترّب الأب آدم)

أو ظهر له فى الحلم إيل، فى رؤياه ظهر أبو آدم^(١٠٩)

و(آدم) فى هذا تعنى الإنسان أو البشر، وواضح فى النص وراثه الاعتقاد القديم فى عبادة الأب الأول، لذلك جاء (إيل) الإله الأعظم فى النص كأب للبشرية، وهو الذى لقب فى ملحمة البعل الأوجاريتية الفينيقية بأنه:

خالق الخلائق..

خالق الكائنات

لطفان (كثير اللطف)

إله الرحمة..^(١١٠)

وهى كلها صفات تشير إلى الألوهية ممزوجة بالحنان الأبوى وكان (إل) أو (إيل) يُعد لدى الفينيقيين الإله الأعلى، ويلقب بـ(العلى Suprem God)، فهو أبو الآلهة جميعاً، وأبو البشر أيضاً.

^(١٠٩) السواح: سبق ذكره، ص ١١٨، ٨٧.

^(١١٠) فريجة: ملاحم... سبق ذكره، ص ١٤٧، ١٤١، ١٢٥، ١٢٤.

وإلى جانب (إل) عبد الفينيقيون إلهاً آخر لا يقل عنه أهمية بل هو أقرب إلى الناس من الأب الأول (إل) عرف في فلسطين باسم بعل، وفي لبنان في فينيقيا باسم (أدونيس Adonis)، الذي هو (آدون) بعد حذف الياء والسين التي تلحق بأسماء الأعلام أو (آدوم) أو (أديم) أو (آدم) أو (عدم) أو (عدن).

* * *

الباب الثالث

سفر التكوين التوراتى

تأسيس

عندما نبدأ الحديث عن التوراة، فهذا إنما يعنى أننا نتحدث عن أخطر الشعوب السامية، ذلك الشعب ذو الأسماء المتعددة: عبريون، يهود، إسرائيليون.

وقد استطاع هذا الفرع من الشعوب السامية، أن يدخل التاريخ من أوسع أبوابه، ويحوز شهرة واسعة فى العالم حتى اليوم، نتيجة ارتباط هذا الشعب بالتوراة، تلك المأثرة التى تمكن من إنجازها، وجمع لها مادة دينية هائلة متنوعة، تحت عنوان (الكتاب المقدس BIBLE)، الذى أصبح مصدراً تاريخياً ودينياً لا غنى عنه، للباحث المدقق أو المؤمن المتبذل، على حد سواء، نتيجة كونه الأثر الوحيد الذى وصلنا متماسكاً وشبه جامع لتراث شعوب حوض المتوسط الشرقى بجملة عادات هذه الشعوب وتقاليدها ونظمها الاجتماعية، واعتقاداتها الدينية مع عدد غفير من الأساطير والمتواترات والملاحم والفلكلوريات، لذلك فهو معين للمؤمن، كما أنه لاشك معين عزيز للباحث المنقّب أيضاً، لكن مع إشكالية كبرى ناشئة عن كون اليهود قد جعلوا جماعتهم وأربابهم، قطب الدائرة فى هذا الكتاب فنسبوا بطولات الملاحم إلى آبائهم الأوائل أحياناً، أو نسبوا أبطال أساطير شعوب أخرى إلى أنفسهم، وادّعوا النسب السلالى إليهم أحياناً أخرى، فكانت النتيجة مزيجاً هجيناً من ثقافات شتى، تعود إلى الراسب الثقافى لمجموعة كبرى من شعوب المنطقة تلاقحت جميعاً على صفحات الكتاب، ولعب فيها اليهود دور البطولة المطلقة.

والكتاب المقدس المتداول الآن، هو مجموعة الأسفار التي جمعها اليهود، مع ما أضافه إليه المسيحيون من أناجيل ورسائل مقدسة، وللتفرقة بين المقدس اليهودي، والمقدس المسيحي، داخل الكتاب المقدس، اصطلح على تسمية اليهودي (العهد القديم) وتسمية المسيحي (العهد الجديد). ومدار بحثنا هو المقدس اليهودي أو العهد القديم، لما تضمنه من تراث شعوب المنطقة.

وقد اختلف الباحثون حول ضبط وتوقيت جمع مادة هذا الكتاب التي كانت متناثرة على المتاح آنذاك من وسائل الكتابة، إضافة إلى ما دخل إليه أثناء جمع المادة من تأليف جديد وترتيب جديد، ويذهب (أنيس فريجة) إلى أنه «كانت مواد أسفار التوراة من شعر وقصص وأمثال وتاريخ وتعليم ديني في بادئ أمرها روايات شفوية متداولة جيلاً بعد جيل، إلى أن قيض لها أن تدون في حدود ٤٤٠ ق.م»^(١١١).

ويلخص (حسن حنفي) القول في قوله: «إن أسفار الكتاب المقدس لم يكتبها مؤلف واحد، في عصر واحد، لجمهور واحد، بل كتبها مؤلفون كثيرون، في عصور متعاقبة، لجمهورات مختلفة المزاج، ويمتد التدوين إلى ألفى عام، وربما أكثر من ذلك»^(١١٢).

(١١١) د. فريجة : دراسات .. سبق ذكره، ص ١٩٨
(١١٢) د. حسن حنفي : (هوامشه على ترجمة كتاب اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، مراجعة د. فؤاد زكريا) دار الطليعة، بيروت ط٢، ١٩٨١، ص ٢٨ .

هذا إضافة إلى الإقرار الواضح في مقدمة الطبعة الكاثوليكية للكتاب المقدس لسنة ١٩٦٠، الذي يقول: «ما من عالم كاثوليكي في عصرنا، يعتقد أن موسى ذاته كتب كل التوراة منذ قصة الخليفة، أو أنه أشرف على وضع النص الذي كتبه عديدون من بعده، بل يجب القول: إن ازدياداً تدريجياً حدث، سببته مناسبات العصور التالية، الاجتماعية والدينية».

وقد حاول بعض العلماء تحديد الفترة الزمنية التي استغرقها زمن تدوين الكتاب المقدس، فطالت المسافة وامتدت ما بين بداية القرن العاشر قبل الميلاد وانتهاء بالقرن الأول الميلادي، وذهب هؤلاء إلى أن الأسفار الخمسة الأولى قد كتبت على مدى ثلاثة قرون ابتداء من القرن العاشر قبل الميلاد، أما آخر الأسفار وهو سفر المكابيين الأول، والثاني، فقد حررت خلال القرن الأول قبل الميلاد^(١١٣).

أما موسوعة تاريخ العالم، التي أشرف على تحريرها عدد لا يستهان به من العلماء، فقد أكدت أن في هذا الكتاب أجزاء ألفت ما بين ١١٥٠ ق.م وبين ١٣٠ ق.م، وأجزاء أخرى كالأسفار الخمسة الأولى، قد أخذت صورتها النهائية حوالي عام ٤٠٠ ق.م، وتحتوي كتابات يرجع تاريخها الشفاهي إلى ستة قرون سابقة على هذا التاريخ، بينما الأسفار التاريخية قد كتبت سنة ٥٥٠ ق.م مع

تصنيفات أخرى للكتاب، قدمت لها الموسوعة اقتراحات بتواريخ مختلفة ومتباعدة تباعداً كبيراً^(١١٤).

(١) السواح: سبق ذكره، ص ١٠٨.

(١) وليم لانجر (وآخرون) : موسوعة تاريخ العالم، أشرف على الترجمة د. محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، دت ص ٦٦.

وكما هو ملاحظ، فإن أكثر الباحثين يطلق على هذا التراث الهائل اصطلاح التوراة، إلا أن التوراة تقتصر – لوجه الحق – على جزء يسير من الكتاب المقدس، هي الأسفار الأولى منه المنسوبة إلى النبي موسى، وهي: التكوين Cenesis، الخروج Exodus، اللاويين أو الليفيين Levetieis، العدد Numbers، التثنية Deuteronomy ومن الباحثين في العلوم التوراتية، من يدخل في أسفار موسى السفر السادس (يشوع).

ونحن بدورنا سنستخدم هذا الاصطلاح (التوراة) في عملنا هذا، تجاوزاً لأن بحثنا سيتركز فعلياً على الأسفار الست الأولى من الكتاب المقدس.

ومن المهم الإشارة إلى أنه لا يوجد باحث علمي ذو شأن، ذهب وراء القول أنها أسفار موسى، أو أن موسى كتبها، إنما هناك إجماع على أنها ألقت بعد موسى بقرون طويلة، وأنها نتيجة تصانيف مختلفة، لمؤلفين مختلفين مزاجاً ومشرباً. وتلك مدرسة (فلهاوزن Willhawsen) على ذلك بأدلة أهمها وأخطرها أن اسم الإله يختلف

في هذه الأسفار ما بين سفر وآخر، إضافة إلى تكرار القصص فيها، مما يشير إلى عدد من الكتاب لم يلتقوا لتصفية الأمر بينهم، مع فروق واضحة وجوهرية وعميقة في اللغة وفي الأسلوب بين هذه الأسفار^(١١٥).

والتوراة تبدأ تاريخ اليهود منذ فجر الإنسانية على الأرض، فتأتي بشجرة النسب اليهودي من جذرها الأول المسمى في اللغة العربية (آدم)، ومنه تشعبت الأنساب شعاباً، أهمهم في التوراة فرع من الشجرة البشرية هو الفرع السامي، بل هو غصن في هذه الشجرة هو الغصن اليهودي، أو كما يحلو لهم أحياناً تسمية أنفسهم

(١) موسكاتي: (عن فلهاوزن) سبق ذكره، ص ١٥٧.

الشعب العبرى، واللغة المنسوبة لهذا الشعب والتي كتب بها أهم أجزاء التوراة، هي المعروفة باللغة العبرية، بينما العبرية هي ما عبرت عنها التوراة بأنها (شفة كنعان) أى لسان الكنعانيين، حتى أن الكلمة آدم، وقد عرفناها قبل التوراة، كلمة كنعانية فينيقية فى مدونات (أوغاريت).

ولنلاحظ أن التوراة لم تحاول أن تتكر أن لسانها مأخوذ عن لسان الكنعانيين، ولم تحاول أن تتكر أنه قد سبقهم فى هذه الأرض شعب هو الشعب الكنعانى. وأطلقوا على الأرض فى التوراة أرض الكنعانيين، وأرض الفلسطينيين ويزعم الباحثون أن الكنعانيين رغم أنهم أسبق فى التواجد بفلسطين، فإنهم بدورهم كانوا هجرة قدمت إلى فلسطين من شبه جزيرة العرب حوالى ٢٥٠٠ ق.م.

وإذا كان منهجنا فى البابين السابقين، قد حاول أن يربط بين تطور العبادات فى بلاد الرافدين وبين التطور الاجتماعى والسياسى والشكل الاقتصادى، فإن مثل هذه المحاولة مع التاريخ اليهودى أمر يستعصى على البحث تماماً، لعدة أسباب أهمها:

مشكلة التتبع الزمنى الصادق لأسفار التوراة، التى لم يراع فى ترتيبها منهج محدد.

الغموض الذى أحاط بمعانى الألفاظ التوراتية، ومقصد التوراة الحقيقى منها، وهو أمر فيه جدال وخُلف كبير، بين الباحثين التوراتيين مما أدى - حتى الآن - إلى تباعد شديد فى تفسير النص الواحد، بل وأحياناً الكلمة الواحدة، إضافة إلى أن التوراة تغص بأسماء أماكن قديمة على خريطة المنطقة، يصل عددها إلى الآلاف، لم يستطع عالم جاد واحد حتى اليوم، أن يجزم بالمكان الحقيقى الصادق، ولو لعشر منها فقط، كما لم تعطنا

البحوث الأركيولوجية، ولا أى حفريات، دلائل صادقة على موضع قديم يمكن القول المؤكد أنه موضع الآن فى فلسطين المظنون أنها كنعان التوراتية.

وزيادة على ذلك، ونكاية فى إخلاص الباحث الجاد، نجد مدونات التوراة قد ظلت زماناً طويلاً خالية من التتقيط والتشكيل، إضافة إلى اختلاط النطق فى الحروف العبرية ذات المخرج الواحد: الشفاه، الأسنان، الحنجرة، اللسان، الحلق، مع غياب الأزمنة: الحاضر، الماضى الناقص، الماضى التام، المستقبل السابق فى

الصيغة الإخبارية، ناهيك عن غياب الحروف المتحركة، ولم يتم وضع ذلك كله إلا أيام الحشمونيين قبل الميلاد بحوالى قرنين من الزمان، وفق قواعد اللغة الآرامية، مما أدى إلى لبس وأخطاء لا مزيد عليها، مما يجعل قراءة أى كلمة اليوم فى التوراة، موضع حذر وشك كبير^(١١٦).

إن اليهود لم يكونوا خلال تاريخهم جماعة واحدة مستقرة فى مكان واحد إنما كانوا جماعات مختلفة، مرتحلة دوماً إلى جهات مختلفة، ما بين الرافدين وجزيرة العرب وكنعان وحران ومصر.. الخ، حتى دولتهم التى قامت مع بداية الألف الأول قبل الميلاد لم تستمر فى الوجود زماناً مناسباً يسمح بنضوج أو تطور اجتماعى واضح محدد البصمات، يمكن للباحث تتبعه.

إن عدم الاستقرار فى مكان واحد مدداً طويلة، أدى إلى تغيرات مستمرة فى العقائد والعبادات، التى أخذت تصطبغ مع كل ارتحال بألوان متعددة، فجاءت ديانتهم بعد جمعها مزيجاً متنافراً من الألوان عديمة

^(١١٦) د، حسن حنفى: سبق ذكره، ص ٢٨.

الاتساق والتمازج، مما أدى بباحث متحيز لليهود مثل (إيفارلسنر) إلى القول عما خرج به من دراسة الكتاب

المقدس: «إن تابوت العهد^(١١٧) يعود بنا إلى مساكن آلهة النيل المتنقلة، وآثار السحر

ترجع بنا إلى مصر كما تذكرنا قصة الطوفان والأرقام الغامضة ببابل، ويصير الإله البابلي جلجامش نمروداً، وتصبح ثيران آشور المجنحة كروبيم العبريين، كما أن أسطورة الجنة وشخصية الشيطان أهريمان، وعالم الملائكة ورؤساء الملائكة تعيد إلى أذهاننا بلاد الفرس، ونتعرف على البعل إله الفينيقيين والكنعانيين في أسماء إشبعل ومربعل. لقد كان الفلسطينيون الذين يحتمل أن يكونوا قد وفدوا أصلاً من كريت، ينظرون إلى اليمامة أصلاً كإله، أما السمكة التي عُبدت في عسقلان فتظهر في قصة يونان»^(١١٨).

تاريخ اليهود في التوراة:

^(١١٧) تابوت العهد أو تابوت الشهادة: هو تابوت أمر الإله (يهوه) نبيه (موسى) بصنعه وفق مواصفات محددة فيما تزعم التوراة بهدف أن ينزل الإله ويستقر فيه، فيحمله اليهود معهم أينما حلوا أو ارتحلوا، ليتمكن من الاطلاع على أحوالهم = عن كتب، ومن ثم يتمكن من مد يد العون الفورية لنصرتهم على أعدائهم، وعند حط الرحال كان هذا التابوت يوضع في خيمة خاصة سميت خيمة الاجتماع، حيث يجتمع فيها موسى بربه بعيداً عن أعين المتطفلين بوهناك يتشاور الرب والنبي، ويتلقى النبي توجيهات الرب وأوامره، وقد استطاع الفلسطينيون عند دخول اليهود بلادهم، أن ينتزعو هذا التابوت من اليهود خلال معركة عنيفة، فكانت النتيجة أن الرب الراقد في = التابوت لم يميز بين الفلسطينيين واليهود، إنما وقف إلى جانب من يحملونه في رحلهم وانحاز للفلسطينيين الذين أمكنهم الاحتفاظ بتابوته، فنصرهم على اليهود، ولم يتمكن اليهود من استعادة النصر إلا عندما استطاع داود النبي استعادة التابوت بعد معركة شرسة مع الفلسطينيين، وقد وردت إشارة لهذا التابوت في القرآن الكريم، حيث قالت الآيات عن شرعية ملك الملك داود: (إن آية ملكه، أن يأتيكم التابوت، فيه سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ) (البقرة ٢٤٨).

^(١١٨) د. إيفارلسنر: الماضي الحي، حضارة تمتد سبعة آلاف عام، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد، مراجعة د. محمد أبو المحاسن عصفور، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١، ص ١٤٢.

تزعّم التوراة أن اليهود هم نسل اثني عشر ولداً هم الأسباط، أبناء النبي (يعقوب) المسمى (إسرائيل)، ومن هنا سموا (بنى إسرائيل)، وحتى تجعل التوراة من هذا النسل خلاصة البشرية، ومدار حديثها المقدس فإنها تجرى تصفيات عجيبة بين الشعوب، سنلاحظها مع خطونا داخل التوراة.

تبدأ التوراة تاريخ اليهود بالعودة إلى بداية الإنسانية لإنسانيتها على الأرض، فتحكى لنا رواية تقول: إن الله خلق زوجين من البشر، ووضعهما في مكان أطلقت عليه (جنة عدن)، وإن هذا المكان كان على هذه الأرض ذاتها، لكن الزوجين البشريين ارتكبا خطيئة عظيمة، عندما عصيا أوامر الإله في أمر هائل؟ فقد أكلتا من ثمرة شجرة حرما عليهما!! فثارت نائرة الإله، وطردهما من هذا المكان إلى مكان آخر على الأرض، شرقى عدن. وأنجب الزوجان البشريان الأوائل، اثنتين من الذكور هما هابيل الذي اشتغل بالرعى، وقايين الذي عمل في الأرض فلاحاً (ويبدو أن ذلك تسجيل قديم لبداية التخصيص في العمل، وفق ظروف البيئة، والصراع الذي نشأ بين هذين النظامين) وقام الأخوان يقدمان للإله القرابين لإرضائه، فقدم هابيل من لحم غنمه، وقدم قايين من زرع أرضه. وكما سيتضح فيما بعد، فإن الإله كان على ما يبدو من اللواعم، فقبل قربان هابيل، ورفض قربان قايين (والتحيز هنا واضح للبدانة والنظام الرعوى، ولنتذكر أن اليهود بدو رعاة)، مما أوغر صدر

قايين الفلاح، على أخيه الراعى، فقتله، ثم يختفى ذكر قايين من التوراة، ليظهر ابن ثالث لأبى البشرية المدعو آدم، هو (شيث)، ومن شيث تناسلت البشرية وتكاثرت على الأرض. (وهكذا كان واضحاً أن دور هابيل وقايين لم يكن له أى علاقة بالتكوين، بعد أن مات هابيل وتبعه قايين وجاءت البشرية من أخ ثالث هو شيث وهو ما يؤكد أن قصتهما إن هي إلا تسجيل بدئى وتفريق بين نظامين، أقربهما إلى الإله هو الرعوى).

ومرة أخرى يعصى النسل البشرى ربه، فيقرر الرب إفناء مخلوقاته العاصية دوماً، بالطوفان، ورغم تأكيد التوراة المتواتر على ندم الإله المستمر لخلقه البشر، فإنه مع ذلك، يضرر بينه وبين نفسه الإبقاء على بذرة الحياة، فيختار من بين نسل (شيث) فرداً واحداً هو (نوح)، ويخبره بقرار الدمار الذى انتواه، ويأمره أن يصنع فلكاً، ويجمع فيه من كل الأحياء، وأن يأخذ أبناءه معه، وتستمر القصة فتعلمنا بتفجر الأرض بالعيون، وتفتح أبواب السماء بماء منهمر، مما أدى إلى طوفان عاتٍ، حمل السفينة النوحية بركابها، الذين تم اختيارهم عشوائياً، بينما فنى كل حى آخر على البسيطة، وانتهى الأمر بالسفينة بعد هدوء الغضب الإلهى، إلى التوقف فوق جبل (أرارات)، قرب بحيرة (فان)، إلى الشمال من بلاد الرافدين، داخل بلاد أرمينيا.

ثم تأخذ التوراة طريقها فى تمييز النسل اليهودى المرتقب، كسيد للبشرية وشعب خاص من بين الشعوب الأخرى، فنقول:

«وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك: ساماً، وحاماً ويافت، وحام هو أبو كنعان، وهؤلاء الثلاثة هم أبناء نوح، ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض — تكوين ٩-١٤-١٥»

ولأن اليهود يعدون أنفسهم — فى الأسطورة — أبناء سام، فكان لا بد من التصفية، التى بدأت باستبعاد حام وبنيه من التاريخ المقدس، وهو فى التوراة أبو كل من (كوش) أو الزوج، و(مصر ايم) أبو المصريين و(كنعان) أبو الكنعانيين، أصحاب الأرض المطلوب الاستيلاء عليها، لبنى سام. ولا مجال للاستبعاد، إلا أن يأتى حام وبنوه منكراً، لخصته التوراة فى القول: إن نوحاً بعد هبوطه من السفينة، قد شرب خمراً حتى ثمل، وتعرى من ثيابه ثم غاب عن وعيه «فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه.. فأخذ سام ويافت الرداء.. وسترا عورة أبيهما.. فلما استيقظ

نوح من خمره، علم ما فعل به ابنه الصغير، فقال ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته، وقال مبارك الرب إله سام، ليفتح الله ليافت، فيسكن فى مساكن سام، وليكن كنعان عبداً لهم — تكوين ٩-٢٠: ٢٧».

وواضح من هذه التصفية الأخلاقية، والتي كان الملام فيها أصلاً — حسب الرواية التوراتية — نوح ذاته، القصد باستبعاد الكوشيين الأحباش والمصريين من التركة المقدسة، مع التركيز على استبعاد كنعان بن حام بوجه خاص مع خصه باللعنة والعبودية لسام، رغم أنه لم يشاهد العورة النوحية ولم يرتكب ذنباً، إنما كان الذنب

ذنب الجد الذى سكر، وذنب الأب حام الذى شاهد هذه العورة وعانها.

ثم تمطر التوراة بركاتها على الابن سام بالتحديد والخصوص، بحسبانه الجد البعيد لليهود، ثم تركز جهودها بعد ذلك، وطوال أسفارها حول نسله المجيد، فتخبرنا أنه أنجب كل بنى عابر، وتعدد بنى عابر بأنهم: (عيلام) أبو الإيرانيين، و(أشور) أبو الرافديين، و(أرفخشد) أبو الأرمنيين، ثم تصطفى من بينهم (أرفخشد) الذى أنجب شالح، وأنجب شالح عابر، وأنجب عابر فالج، ويقطان أبو حضرموت (ولا ندرى سراً لهذا الخلط بين أناس يعيشون فى أقصى الشمال، فى (أرمينيا)، وأناس يعيشون فى أقصى الجنوب، فى (حضرموت)؟!)

(عند مراجعتنا للبروفة الأولى لطباعة هذا الكتاب كنا قد انتهينا من كتاب: النبى إبراهيم والتاريخ المجهول — دار سينا — ونظن أننا قد كشفنا فيه السر وراء هذا الخلط).

أما فالج أخو يقطان، فقد كان هو الفرع المبارك فى الشجرة المباركة فهو جد النبى (إبرام) أو (إبراهيم) الذى أنجب بدوره إسماعيل وتقرر التوراة استبعاد إسماعيل، فنقول: إن إبراهيم قد أنجبه من جاريتة هاجر، وأن

الأمر لم يرق لسارة زوجة إبراهيم، فأمرت بطرد الجارية وولدها فأخذهما إلى بادية من البوادي، وتركهما هناك، حيث ترعرع إسماعيل واستوطن في تلك البوادي

نهائياً، تاركاً الأرض للنسل الآتى، فقد أنجبت سارة – حسب الرغبة التوراتية – إسحق الذى تم استبقاءه في المصفاة التوراتية ليكون جداً لليهود.

وأنجب إسحق ولدين هما: (عيسو) البكر، ثم (يعقوب)، وحسب منطق القواعد السامية، كان المفترض أن يكون البكر (عيسو)، هو وريث النبوة والأرض والأمالك، لكن الذى حدث في التوراة هو العكس، بعد أن استخدمت مصفاتها مرة أخرى لاستبعاد البكر، واستبقاء آخر العنقود (يعقوب)، الذى سيكون هو (إسرائيل) أبو الأسباط أو بنى إسرائيل، وقد أوردت التوراة ذلك في أسلوب طريف، في قصة أطرف، لا يصح تجاوزها.

تقول القصة:

فكبر الغلامان، وكان عيسو إنساناً يعرف الصيد، إنسان بريء، ويعقوب إنساناً كاملاً يسكن الخيام، فأحب إسحق عيسو، لأن في فمه صيداً، وأما رفقة (الأم) فكانت تحب يعقوب.. وحدث لما شاخ إسحق وكَلَّت عيناه عن النظر، أنه دعا عيسو ابنه الأكبر فقال: هأنذا، فقال: إننى قد شخت ولست أعرف يوم وفاتى فالآن خذ عدتك، جمعبتك وقوسك، واخرج إلى البرية،

وتصيد لى صيداً، واصنع لى أطعمة كما أحب، وأنتى بها لآكل، حتى تباركك
نفسى قبل أن أموت، وكانت رفقة سامعة.. فكلمت يعقوب ابنها قائلة.. يا بنى اسمع
لقولى.. اذهب إلى الغنم، وخذ لى من هناك جديين جيدين من المعزى، فأصنعهما أطعمة
لأبيك كما يحب، فتحضرهما إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته فقال يعقوب لرفقة
أمه: هو ذا عيسو أخى رجل أشعر وأنا رجل أملس، ربما يجسنى أبى فأكون فى عينيه
كمتهاون، وأجلب على نفسى لعنة لا بركة.. فأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر
الفاخرة.. وألبست يعقوب ابنها الصغير، وألبست يديه وملاسه عنقه جلود جديى المعزى،
وأعطت الأطعمة والخبز التى صنعت فى يد يعقوب ابنها، فدخل إلى أبيه وقال يا أبى
فقال ها أنذا من أنت يا بنى، فقال يعقوب لأبيه: أنا عيسو بكرك، فقد فعلت كما كلمتسى،
قم اجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك فقال إسحق لابنه ما هذا الذى أسرعت لتجد
يا بنى؟

فقال: إن الرب إلهك قد يسر لى!!؟

فقال إسحق ليعقوب: تقدم لأجسك يا بنى، أنت هو عيسو أم لا؟ فتقدم يعقوب إلى
إسحق أبيه، فجسه.. ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدى عيسو أخيه، فباركه.. فقال
له إسحق أبوه: تقدم وقبلنى يا بنى، فتقدم وقبله فشم رائحة ثيابه وباركه، وقال: انظر
رائحة ابنى كرائحة حقل قد باركه الرب، فليعطك الرب من ندى السماء ومن دسم الأرض
وكثرة حنطة وخمر، ليُسْتَعْبَدَ لَكَ شعوب وتَسْجُدَ لَكَ قبائل، كن سيداً لإخوتك، وليسجد لك

بنو أمك، ليكن لاعدوك ملعونين، ومباركوك مباركين، وحدث حين فرغ إسحق من بركة يعقوب.. أن عيسو أخاه أتى من صيده.. فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومرة جداً، وقال لأبيه: باركنى أنا أيضاً يا أبى، فقال: قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك. (تك ٢٧-١: ٣٥)

حقيقة، إن هذا النص ذكرى وتسجيل واضح للتطور التاريخي والاجتماعي فقد قرر انتهاء زمن الصيد والمجتمع غير المستقر، وظهور المجتمع المستقر (عيسو كان إنساناً يعرف الصيد، إنسان بريّة، ويعقوب إنساناً كاملاً يسكن الخيام)، ورغم تمسك الأب بالصيد والنظام القديم، فقد كان لابد من الانتقال ولو بالخدعة.

المهم أن التوراة وهى تجرى التصنيفات النهائية بين الشعوب، لتصل إلى الشعب اليهودى، تجعل يعقوب أهم آباء اليهود بعد إبراهيم، نتيجة حدث خاص تعرض له يعقوب، يفسر لنا سر تمسك الإله بهذا الشعب كمختار له دون البشر، إذ أن يعقوب التقى بالرب ودخل معه فى معركة انتهت لصالح يعقوب، أو كما تقول التوراة:

فبقى يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه، ضرب حق فخذه، فانخلع حق فخذ يعقوب فى مصارعة معه، وقال أطلقنى لأنه قد طلع الفجر، فقال: لا أطلقك إن لم تباركنى، فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب، فقال: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت، وسأله يعقوب وقال: أخبرنى باسمك، فقال: لماذا تسأل عن اسمى، وباركه هناك، فدعا

يعقوب اسم

المكان فينيثيل، قائلاً: لأنى نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسى، وأشرقت له الشمس إذ عبر فنوثيل وهو يجمع على فخذة، لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذى على الفخذ إلى هذا اليوم، لأنه ضرب حق فخذيعقوب على عرق النسا. (تك ٣٢: ٢٢-٣٢)

وهكذا تحول الاسم (يعقوب) إلى (إسرائيل)، أو (صراع إيل) أو مصارع الرب أو الذى صرع الإله، وأنجب (إسرائيل) اثنى عشر ولداً هم الأسباط بنو إسرائيل، وكان أشهرهم أصغرهم سنأ وأكبرهم سنأناً (يوسف). أما مصدر شهرة يوسف فى التوراة فهو أنه كان جميلاً جداً فاتناً؟! والثانى أنه كان كثير الأحلام؟! والثالث أنه كان مفسراً أيضاً للأحلام؟! مما أثار موجدة إخوته الذين كادوا له، حتى انتهى بكيدهم عبداً فى بلاد مصر لكن قدرته على التبصير وقراءة الطالع فى الأحلام، أدت إلى ذبوع صيته فى البلاط الملكى، حتى تمكن بقربه من صاحب العرش أن يصبح وزيراً لخزانة المصريين، وبهذا المركز تمكن من استجلاب أبيه وإخوته إلى مصر، فى وقت حل فيه الجفاف بالأرض، وفى مصر عاشوا زماناً تكاثروا فيه وتناسلوا وعلا شأنهم.

لكن الحال لم يستمر على حاله، فقلب لهم الفراعنة ظهر المجن، واتخذوهم عبيداً مسخرين فى الأعمال الشاقة، حتى ظهر (موسى) النبى وهو فى زعم التوراة أحد أحفاد سبط (ليفى) أو (لاوى) أحد أخوة يوسف وهو الذى قدر له قيادة اليهود للهرب من مصر إلى كنعان، فى أشهر الرحلات فى التاريخ، تلك المسماة (رحلة الخروج).

وقد قدر لهذا النبي حسبما جاء بالتوراة أن يكون صاحب مغامرات كبرى شهيرة، منذ ميلاده وحتى مماته، فقد ولد في ظروف صعبة، كان مطلوباً فيها بأمر فرعون مصر، قتل من يولد في هذا العام من ذكور، فألقته أمه في اليم لكن أقدار (الميلودراما) ساقته إلى قصر فرعون حيث عثرت عليه ابنة فرعون، فاتخذته لها ربيباً، لكنه كان يعرف أصله العرقى، مما دفعه يوماً للانتصار لأحد اليهود من بنى جلدته، فقتل بسبب انتصاره لعصبيته مصرياً دون أن يتحقق حتى من موضع الحق، فكان أن طلبه القانون للقصاص فهرب إلى بلاد تسمى (مديان)، حيث التحق هناك بضيافة كاهنها المدعو (يثران)، وصاهره فتزوج ابنته، وهناك قابله رب اليهود في جبل أسمته التوراة جبل الله (حوريب)، حيث أمره بالعودة إلى مصر، مدعماً بعدد من الخوارق، ليقود شعبه المختار من مصر في رحلة خروج، أو رحلة عودة إلى كنعان.

ويظن المؤرخون أن بداية بنى إسرائيل الحقيقية، هي مع رحلة الخروج حوالي ٢٠٠٠ ق.م، بعد أن قضوا

في مصر حوالي أربعة

قرون، لكن موسى لم يحظ بدخول أرض كنعان، حيث تخبرنا التوراة أنه قد مات ودفن وهو من أرض الميعاد قاب قوسين أو أدنى، وخلف على القيادة رجلاً دموياً، هو (يشوع بن نون)، الذي اشتهر بالقسوة المرعبة، وبمعجزات كالمعجزات الموسوية كفلق البحر، لكنه زاد عليها بالتخصص في معجزات يشوعية، منها إيقاف الشمس والقمر في مكانيهما، حتى يتمكن من الانتصار على أعدائه.

ومن بعد يشوع، استمر اليهود يعيشون زماناً، على هامش حياة الكنعانيين في الوقت الذي يزعم فيه الباحثون قدوم أقوام إيجية من جزيرة كريت، باسم الفلسطينيين، ليستوطنوا الساحل الكنعانى، ويكسبوا أرض

كنعان اسمها (فلسطين)، مما خلق أمام اليهود عقبة جديدة، فبدأ صراع طويل بين الشعبين، استطاع اليهود بعد انتصارهم فيه أن يقيموا لهم ملكاً ودولة، كان أول ملوكها (شاؤول) ثم تلاه على العرش الملك (داود)، الذى استطاع أن يكسر شوكة الفلسطينيين بشكل حاسم، مما أتاح للدولة الناشئة الاستقرار، وهياً لوريثه الملك (سليمان) الفرصة ليبلغ بالدولة أوج شهرتها.

ويقول (موسكاتى) إن داود «أعاد إلى إسرائيل حظها الضائع وكان جلوسه على العرش حوالى عام ١٠٠٠ ق.م وكان قد بدأ بتكوين دولة صغيرة خاضعة للفلسطينيين، ولكن مقدراته فى الحرب والسياسة معاً أكسبته الاستقلال، وأقامته ملكاً على إسرائيل مكان أسرة شاؤول وبالاستيلاء على القدس، واستعادة تابوت العهد، صار للدولة الناهضة من جديد، مركزها السياسى والدينى.. وكان سليمان

بن داود.. شديد الاختلاف عن أبيه، فقد أحدث تغييراً جوهرياً فى كل حياة المملكة وأعاد تنظيم المملكة على نمط الممالك المطلقة السلطان، فى الشرق الأدنى القديم، فالأبهة والترف فى البلاط، وكثرة الزوجات والجوارى التى كانت تتطلبها اعتبارات الدبلوماسية والسمعة، والتى قدر كما تقول التوراة أن تشغل قلب الملك، ثم ازدياد مؤامرات القصور.. اضطرت سليمان إلى إقامة نظام من الضرائب، ألقى على شعبه عبئاً ثقيلاً.. وكان إنشاء المعبد الكبير فى أورشليم القدس، أشهر ما قام به سليمان من أعمال عامة، وقد ضم هذا العمل الفخم عناصر قيمة من كنعان فينيقية وغير فينيقية، وكذلك من مصر وأرض الرافدين.. وانتهى نفوذ العبريين بموت سليمان»^(١١٩).

^(١١٩) موسكاتى: سبق ذكره، ص ١٤٤، ١٤٣.

وقد قبض للملك سليمان، أن يحوز في مقدسات المنطقة وتاريخها، شهرة لا تضارع، ربما لأنه أشهر ملوك اليهود، وربما لأنه ضرب بالأنبياء المتبئين عرض الحائط – كما تقول التوراة – ولم يسر وراء الشعوبات وركز اهتمامه في الشئون الدنيوية وفق خطط عقلانية، فتغنوا بحكمته وربما أضاف إلى ذلك ميوله الفنية التي دفعته إلى بناء قصره، والهيكل وفق أحدث الطرز المعمارية، فجلب لهذا الغرض فنانين من مختلف الأقطار المحيطة بدولته،

وأشرف بنفسه على عمليات البناء والنحت والتشكيل والتجميل والنقش.

أما الباحث أحمد سوسة فيقول: «أما الوصف الذي اعتاد الباحثون ترديده عن اتساع وامتداد حدود مملكة سليمان فيعده أكثر الباحثين من قبيل المبالغات، التي درجت عليها دويلات تلك العصور، والحقيقة أن مملكة سليمان التي تبجح بعظمتها، كانت أشبه بمحمية مصرية مرابطة على حدود مصر، قائمة على حراب أسياها الفراعنة.. وكان سليمان يريد أن يجارى الفراعنة في البذخ، والظهور بما هو فوق طاقاته وإمكاناته الاقتصادية.. فأنقل كاهل الشعب بكثرة الضرائب.. ولما عسر على سليمان أن يحتل أرض الفلسطينيين الساحلية، طلب معونة فرعون مصر، فأرسل جيشاً مصرية صغيراً احتلها له وسلمها إليه، مهراً لابنته».

ثم يتساءل (سوسة): «كيف صور كتبة التوراة مملكة سليمان، صورة تفوق الواقع بكثير.. فسليمان لم يكن وهو في أوج مجده إلا ملكاً صغيراً يحكم مدينة صغيرة، وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال، بحيث لم تنقض بضعة أعوام على وفاته، حتى استولى شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين على أورشليم».

ويجب (أحمد شلبي) على التساؤل، فيوضح الأسباب التي أدت إلى هذه الشهرة بقوله: «إن أمور مصر

في عهده كانت مرتبكة، فخفت هيمنتها على فلسطين وبلاد الشام، وكانت أمور الدولة

الآشورية مرتبكة كذلك، وقد منح هذا لداود شيئاً من حرية الحركة والنشاط، والتبسط في ممارسة السيادة»، أما ما جاء عن «قصة ملك سليمان وحكمته»، التي أوردها الكتاب المقدس، فقد تعرضت لحشو وإضافات على نطاق واسع، على يد كاتب متأخر شغوف بالمبالغة، في وصف رخاء عصر سليمان، موله بتمجيد حكمه.. وقد استطاعت هذه الرواية أن تحمل العالم المسيحي، بل والإسلامي، على الاعتقاد بأن الملك سليمان كان من أشد الملوك عظمة وأبهة.. لكن الحق أنه إذا قيست منشآت سليمان بمنشآت تحتمس الثالث أو رمسيس الثاني أو نبوخذ نصر، فإن منشآت سليمان تبدو من التواضع الهينات.. أما مملكته فهي رهينة تتجاذبها مصر وفينيقا، وترجع أهميتها في معظم أمرها، إلى ضعف مصر المؤقت^(١٢٠). (ومن المناسب أن نوضح من جانبنا أنه لم يكتشف نص واحد حتى الآن، لا في مصر، ولا في نصوص الرافدين، يشير من بعيد أو قريب، إلى ملك باسم سليمان أو داود أو شاؤول، وهو أمر غريب بالقياس إلى ما ادعته التوراة عن شهرة المملكة السليمانية!!).

والمهم أن هذا النفوذ السلیمانی المزعوم، قد انتهى بانقسام المملكة من بعده إلى دويلتين: واحدة في الشمال سميت إسرائيل وعاصمتها السامرة، وأخرى في الجنوب سميت يهوذا وعاصمتها أورشليم، ولم تلبث المملكة الشمالية أن وقعت في قبضة الرافديين الآشوريين، بعد أن سحقها العاهل الآشوري سرجون الثاني، بينما

(١٢٠) د. أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، دار العربي للإعلان والطباعة والنشر، ط٢، دمشق، ص٢٩٧، ٢٦٩، وقد لاحظنا أن د. سوسة اقتبس هذه المادة جميعها عن د. أحمد شلبي في كتابه: مقارنة الأديان، اليهودية نشر مكتبة النهضة المصرية، ط هـ القاهرة ١٩٧٨، ص٥٦. وأن د. شلبي بدوره قد اقتبسها عن ويلز في ٢٠٧-٢٠٤. PP. Wells: Hsitor of the world, ٩٣ the out line of History vo L٤.

انتهت المملكة الجنوبية يهوذا إلى المصير ذاته على يد العاهل البابلي الكلداني نبوخذ نصر الثاني، وذهب ألوف من كليهما أسرى إلى بابل وآشور، وهناك ظلوا في الأسر حوالي أربعة قرون.

وفي العقود الأخيرة من القرون الأربعة ظهرت في الأفق دولة كبرى جديدة في إيران هي دولة الفرس، بقيادة رجل حديدي غير عادي هو (كورش)، الذي اتجهت طموحاته إلى الاستيلاء على بلاد المشرق وتكوين إمبراطورية كبرى، وكان لحنكته السياسية دورها الحاسم في تحقيق أحلامه، فقد قبل عروضاً بتعاون اليهود وعلى رأسهم (أشعيا) و(إرميا)، بموجب شروط ومطالب محددة لليهود، وعلى رأسها تحريرهم من الأسر وعودتهم إلى أرض كنعان لإقامة هيكلهم ودولتهم مجدداً، مما انتهى بفتح أبواب بابل للفرس.

و«يخبرنا المؤرخ اليهودي يوسفوس^(١٢١) أن كورش أرجع كل انتصاراته إلى الرب الذي يؤمن به اليهود، لذلك صمم على إعادة بناء

بيت له في القدس.. وتشير المصادر اليهودية إلى أن كورش قام بإعادة اليهود المرتحلين من بابل إلى القدس مجدداً خلال العام الأول من احتلاله لها، وقد فرح اليهود بذلك واعتبروه المسيح المنتظر ونقرأ في سفر إشعيا: هكذا يقول الرب لمسيحه كورش.. الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما وملوكاً.. لكي تعرف أنني أنا الرب الذي يدعوك باسمك إليه، إسرائيل (إشعيا ٤٥-٣) ويقول العهد القديم بأنه تزوج إستر اليهودية وجعلها ملكة على بابل»^(١٢٢).

(١) يوسفوس: Filavius Josephus أشهر المؤرخين اليهود في القرن الأول الميلادي وينحدر من ناحية الأم من سلالة الأمراء الحشمونيين، الذين حكموا في فلسطين قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة، وهم الذين قاموا بضبط وتنقيح كلمات الكتاب = المقدس، وفق قواعد اللغة الآرامية، ويوسفوس يعد من ناحية الأب فرداً في السلك الكهنوتي، وقد ولد في فلسطين في الموضع المزعوم أنه (ورشليم) حوالي عام ٣٧ق.م، وقاد ثورة كبرى لليهود ضد الاحتلال الروماني، واعتقل، ثم أفرج عنه سنة ٧م، وبعدها عاش في عاصمة الإمبراطورية (روما) يكتب ويؤلف، حتى مات هناك عن ٩٨ عاماً، وأهم ما تركه لنا مؤلف من سبعة أجزاء يروي تاريخ اليهود النضالي، بعنوان (حروب اليهود) وقد كتبه باللغة العالمية آنذاك، الآرامية، كما ترك لنا (تاريخ اليهود القديم) في عشرين جزءاً من بداية الخليقة وحتى عام ٦٦م.

(١) عبد الحميد العلوجي وآخرون: شخصية نبوخذ نصر الثاني، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٢، ص ٥٨، ٥٩، ٦٤.

ورغم أن (قورش Cytus) قد حاز في التوراة على كل اصطلاحات الود، فأصبح هو (المسيح) وهو (راعى اليهود — إشعيا ٤٤-٢٨)، ونداه رب اليهود باسمه، فإن سفر إشعيا يؤكد أن (قورش) لم يعرف رب اليهود (إشعيا ٤٥-٤،٥)، إلا أن المهم في الأمر هو إصدار قورش سنة ٥٣٨ ق.م، قرارا بارجوع اليهود إلى الأرض المقدسة، وإعادة بناء معبد أورشليم الذي ظل قائماً حتى دمره الرومان نهائياً حوالي عام ٧٠م.

الآلهة التوراتية:

وهكذا لا يعود مستغرباً أن نجد الدين اليهودى قد مر بأطوار لا يحكمها منطق محدد، قدر ما تحكمها ظروف أخرى أهمها التأثير بمختلف عقائد شعوب البلدان التي عاش فيها اليهود أزماناً طويلة، سواء فى البلاد الكنعانية أو المصرية أو الرافدية، أو أى موطن آخر استقروا فيه بضعاً من الزمن، ومن هنا يمكن لأى باحث — بقليل من الجهد — أن يجد فى التوراة مآثر مصرية وأخرى رافدية وثالثة فينيقية، أو أن يجد طبيعة التأليه تتضارب ما بين التأثير بالآلهة الخصب والزرع والرى، وبين آلهة الصحراء والجبال والبراكين، وبين فجاجة الاعتقادات والطقوس الابتدائية، وبين قمة التطور فى مفهوم الألوهية نحو المطلق، وكله فى آن واحد، يتناثر دون تنظيم محدد على صفحات التوراة فيشكل خليطاً عجيباً دونما رابط ولا زمام، ولا مراعاة لمنطق التطور الزمنى أو الاختلاف المكاني، ولا يبقى أمام الباحث سوى أن يلقي بنفسه وسط هذه الأحبولة ذات المائة وجه والألف لون.

ولا نزعم أنه بإمكاننا ترتيب الأمر كله دفعة واحدة، وإلا كان ذلك سذاجة مفرطة، وإنما غاية ما نزعمه هو الإخلاص فى المحاولة مع الإشكاليات التي قد تعترضنا، على أن تتم هذه المحاولة على خطوات، مع كل خطوة نخطوها فى بحثنا، فى هذا التل المختل من الأحاجى والطقوس والاعتقادات والنظم والتاريخ، الباطل منها والصحيح.

وسيراً مع خطتنا التي اتبعناها في البابين السابقين، سنحاول فهم طبيعة التأليه في التوراة، وهنا يقول لنا (إيفار لسنر): إن سفر التكوين ينسب جزءاً من عملية الخلق إلى إله يدعى (إلوهيم Elohim) بينما ينسب جزءاً آخر إلى إله يدعى (يهوه Jehovah)^(١٢٣) ورغم تبسيط (لسنر) المسألة وتسطيحها، فإننا سنقف مع هذين الإلهين (إلوهيم) و(يهوه أو جاهوفاه) وقفة تفصيلية بعض الشيء:

والاسم (إلوهيم) هو جمع للاسم (إيل) أو (إل) الذي عرفناه عند الساميين في الرافدين والهلال الخصيب، وهو الإله الذي استمر وجوده في التوراة متواتراً، طوال عصر الآباء البطارقة من (إبراهيم) النبي، والممتد عبر أبنائه وأحفاده، حتى ظهور النبي (موسى)، ومع (موسى) يبدأ (يهوه) في الظهور، بعد أن التقى بموسى في (مديان) وهو هارب من مصر، بعد جريمة قتله المصري ظلماً، حيث قال له «ظهرت لإبراهيم واسحق ويعقوب بأنى الإله القادر على كل شيء، وأما باسمي يهوه فلم أعرف عندهم» (خروج ٣-٣٦).

وهنا قصد واضح من التوراة للتفرقة بين عهدين، عهد عُبد فيه الإله باسم (إيل) طوال عصر الآباء الأول، ثم عصر جديد يبدأ مع موسى يظهر فيه الإله باسم (يهوه) وبما أن المفترض في سفر التكوين كقصة للخلقة، أن يكون أقدم بعصور وأزمنة بعيدة عن عهد موسى، ويعود إلى عصور موغلة في القدم، فإن (يهوه) يظهر فيه ليقوم بجزء من عملية الخلق، في عدة مواضع، مما حدا بالباحثين إلى الظن أن هذا السفر قد كتب بعد عهد موسى بزمان طويل، أما نحن فنرى في ذلك تأليفاً بين قصتين للتكوين إحداهما قصة عتيقة قام بها بدور البطولة مجموعة من الأبطال من الآلهة القديمة عبرت عنهم التوراة باسم الجمع (إلوهيم)، كل منها (إيل)، وهى الآلهة التي رافقت العهد الإبراهيمي في التوراة، وقصة أخرى أحدث، قام فيها بدور البطولة الإله (يهوه)، الإله الذي أرفقته التوراة بالعهد الموسوي وما بعده حتى اليوم.

^(١٢٣) لسنر: سبق ذكره، ص ١٤٥، ١٤٤.

وقد سبق وعلمنا أن (إل) كان اسماً جلالياً منتشراً على نطاق واسع بين جميع الشعوب السامية، وعرفته القبائل السامية الضاربة على سواحل المتوسط الشرقية، ووصفته ملحمة البعل الأوغاريتية الفينيقية بأنه «إيل أبو السنين» و«خالق الخلائق»، «ثور إيل»، «مقام إيل عند نبع النهرين»^(١٢٤) وهي إشارات تدل على مستوى تطوري رفيع بلغه (إيل)، حيث تحول من إله فرد ضمن مجمع إلهي، إلى أب رفيع الشأن وإله للزمان (أبو السنين)، وتدل أيضاً على مستوى رفيع من التجريد لدى هذه الشعوب، مما أدى به إلى التحول إلى رمز جلالى يطلق على أى معبود، ومن إله بذاته إلى اسم مجرد يعنى الإله أو الله، مما انتهى بالباحثين إلى اعتبار (إل) علماً إلهياً عرف في كل العبادات السامية بلا استثناء^(١٢٥). خاصة بعد أن تأكد لدى الباحثين في آثريات جزيرة العرب أن (إل) كان معبوداً معروفاً قديماً ومنتشراً في كل بقاعها^(١٢٦).

ورغم أن (موسكاتى) يرى أنه كان شخصية إلهية غامضة^(١٢٧) فإن (ديتلف نيلسن) الباحث والآثارى فى آثريات جزيرة العرب، يؤكد أن هذا الإله كان متواجداً باستمرار فى جميع النقوش التى عرضت له، وأنه كان ذا دلالة عامة (اسم جلاله) لكن (نيلسن) يشير فى الوقت ذاته، إلى أنه قد عرضت له نقوش، ظهر فيها (إل) كدال على إله خاص محدد مفرد^(١٢٨) مما يدعونا إلى افتراض أنه ابتداء كإله خاص، ذى دلالة طبيعة محددة، مثل (أن) السومرى، نظنها السماء، ثم تحول إلى رئيس لمجمع إلهي، ثم مع التطور انتهى إلى اسم جلالى ذى دلالة عامة^(١٢٩).

(١٢٤) د. فريجة: ملاحم.. سبق ذكره، ص ١١٨: ١٢٥.

(١) د. جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٢، ص ١٧.

(٢) ديتلف نيلسن: الديانة العربية القديمة، بحث ضمن كتاب التاريخ العربى القديم، مع مؤلفين آخرين، ترجمة د. فؤاد حسنين على، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨، ص ١٢٧.

(٣) موسكاتى: سبق ذكره، ص ١٢٧.

(٤) نيلسن: الديانة، سبق ذكره، ص ١٨٤.

(١) من العجيب حقاً أن نلاحظ تواجد الإلهين (إيل) و(بهوه) فى عبادات جنوب جزيرة العرب، ونلاحظ ذلك فى تركيب قوائم الملوك، التى عادة ما يتألف فيها اسم الملك من ملصقين أحدهما اسم الإله مضافاً إلى النعت الذى يفيد الانتساب إلى الإله أياً كان لون هذا الانتساب، وفى القوائم الملكية التى أوردتها العلامة (هومل) عن الأركيولوجي (جلازر) وربما عن آخرين معه، أسماء لملوك معينين تحمل أسماء (إيلي بيبع، وقهى

ورغم أن البادى فى سفر التكوين التوراتى، أن (إل) إله مفرد ذو دلالة محددة، كما فى التأكيد أن «إيل إله إسرائيل» (تكوين ٢٣-٢٠)، وأنه كان له موضع مقدس حمل الاسم السامى (BIT)، فأصبح هو «إله بيت إيل» (تكوين ٣١-١٣)، فإن الباحث فى التوراة يجده فى مواضع أخرى كثيرة، اسماً ذا دلالة عامة، وأنه استخدم للدلالة على عدد من الآلهة كل منها (إل) أو إله، تعاصرت فى العهد الإبراهيمى، وكونت مجعاً كان له إله رئيس أو كبير ميز بلقب (الرب الإله)، ويمكن أن نفهم ذلك من نصوص عديدة، منها مثلاً:

«وسمعا (آدم وحواء) صوت الرب الإله ماشيا فى الجنة»

«فنادى الرب الإله آدم وقال: أين أنت؟»

«فقال الرب الإله للمرأة: ما هذا الذى فعلت؟»

«فقال الرب الإله للحية: لأنك فعلت هذا ملعونة أنت»

(تكوين-٣)

أوما نجده فى النص الذى يحكى عن موقف الرب الإله من أبوى البشر، بعد أن أكلا من ثمرة المعرفة المحرمة بأمر الإله، وخشية الرب الإله أن يتناول آدم وحواء أكثر، ويتناولوا من ثمرة الخلود ويعيشا إلى الأبد كالألهة، يقول النص: على لسان الرب:

هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير

والشر، ولعله يمد يده الآن ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، ويحيا إلى الأبد.

إيل، إيل معدى) وفى قوائم ملوك قتيان وسبا وهمدان نجد أسماء جديدة، يلصق فيها اسم الإله الجديد (يهو)، مثل: (شومو هو عليا، يوها أمين يوها نعيم، يهو أمين، يهو رجب، يهو ضبيح). ارجع إلى قوائم الملوك كما أوردها (فرتز هومل) فى (التاريخ العام لسبلاد العرب الجنوبية، ضمن كتاب تاريخ العرب القديم بالاشتراك مع نيلسن وآخرين) ترجمة د. فؤاد حسنين مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨. صفحات ٦٥: ٦٨، ٧٧، ٧٩.

والتعبير (كواحد منا) يشير بوضوح إلى مجمع من الآلهة الخالدة، يقف فيه الرب الإله متحدًا، ومثل هذه الإشارات كثير التكرار في التوراة، ومنها مثلاً عندما خشى الإله البشر، الذين قاموا بينون برجاً صاعداً إلى السماء، وحتى لا يلقون راحته السماوية، فقد بلبل ألسنتهم وفرقها كي لا يفهم بعضهم بعضاً، ويتفرقوا عن البناء، فقام يقول:

هلم ننزل ونبلبل ألسنتهم

(تكوين ١١-٥: ٨)

وغالباً ما حددت التوراة الإله في مجمع من ثلاثة أشخاص، كما في قصة ذهاب الرب إلى النبي إبراهيم، لزيارته وتبشيريه بغلامه إسحق، وإبلاغه بقرار تدمير أهل لوط ابن أخيه في (سدوم) و(عمورة)، الذين تقشى بينهم داء الشذوذ الجنسي. تقول التوراة:

وظهر له الرب عند بلوطات ممرا، وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار. فرفع عينيه ونظر، وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة، وسجد إلى الأرض، وقال: يا سيد إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك، فلا تتجاوز عبدك (تكوين ١٨-١: ٣)

والنص واضح تماماً، فالرب هنا يظهر في صورة ثلاثة رجال، استقبلهم إبراهيم، ثم خاطبهم بصيغة المفرد: ياسيد، عينيك، عبدك، ونتابع النص:

ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم، وكان إبراهيم ماشياً معهم ليشتيعهم، فقال الرب: هل أخفى عن إبراهيم ما أنا فاعله؟.. وانصرف الرجال من هناك، وذهبوا نحو سدوم، وأما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب (تكوين ١٨-١٦: ٢٢) مرة أخرى، الرب هنا مجموعة رجال في واحد، لكن المربك في هذا النص القول أن

هؤلاء الرجال الآلهة ذهبوا نحو سدوم ليدهروها، بينما بقى الرب مع إبراهيم، ولا تفسير لهذا الأمر سوى أن الذى بقى هو كبيرهم الرب الإله، ويؤكد لنا هذا الفهم، أن الذين ذهبوا لتنفيذ المهمة اثنان فقط، فالنص يتابع قائلاً:
فلما رآهما لوط، قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض، وقال: يا سيدى ميلا إلى بيت عبدكما،..
واغسلا أرجلكما.. (تكوين ١٩-١: ٢)

ومع ذلك فإن مزيداً من الإمعان فى التوراة، يرفع عدد آلهة المجمع، حيث نجد عدداً لا بأس به من الآلهة، فهناك: (إل صباوت) إله الجنود، و(إله عليون) الإله العلى، و(إل شداى) الإله الشديد أو القدير، و(إل شلم) إله السلام، و(إل جبور)، و(إل رحبوت) و(إل يراه) ويمكن لخبرة الباحث فى تاريخ الديانات وفى الميثولوجي، أن يشتم فى هذه الأسماء، أسماء لآلهة مواضع ومناطق وظواهر طبيعية فترجمة (إل صباوت) يمكن أيضاً أن تكون (إله الأطباء) أو الإله الطبى أو التيس، وهو إله معروف فى تاريخ الديانات كرمز للخصب، و(إل عليون) يمكن أن يكون إله مكان مرتفع كقمة جبل أو بركان أو ما شابه ذلك و(إل شداى) يمكن أن يترجم إضافة إلى كونه الشديد، إلى إله الشذى أو الرائحة أو الريح (الدال تختلط بالذال فى الساميات)، و(إل يراه) رمز واضح لإله الماء والرى والخصب، وينطق أيضاً (يراخ)، والمصريون يقولون: (المطر يرخ) ويتضح للمدقق فى التوراة أن إل يراه كان إلهاً ليثر أو لعين من الماء فهو يلتقى بهاجر «على عين الماء التى فى طريق شور» (تكوين ١٦-٧) ويأمرها بالرجوع إلى سيدتها فدعت اسم الرب الذى تكلم معها: «أنت ايل رتى»، والمعنى أن هاجر تعلم أن هناك أكثر من إله، فميزت الإله الذى قابلته «الذى تكلم معها» وعرفت فيه إله الرى، بأنه «أنت ايل رتى»، وقد اكتشفت أنه إله الرى بالذات، والسبب «لأنها قالت: أهاهنا رأيت بعد روية» (تكوين ١٦-١٣) أى ارتويت بعد عطش كاد يكون موتاً (روية)، ثم إنها صادفت ذات الإله بعد ذلك عندما أخذها إبراهيم النبى بأمر زوجته سارة إلى البرية، حيث تركها هناك مع طفلها إسماعيل، حيث تظهر علامات إله الخصب مرة أخرى حين

«طرح الولد تحت إحدى الأشجار» (تكوين ٢١-١٥)، وأخذت تبحث عن الماء، «وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء» (تكوين ٢١-١٩)، لذلك «دعت البئر بئر لحي رثى» (تكوين ١٦-١٣) ولعل النص في الأصل «دعت البئر لحي رثى» أى إله الرى والماء.

ويظهر الإله (لهى رثى) فى أكثر من موضع فى العهد الإبراهيمى، لكن مع تداخل يهوه، الذى لم يظهر إلا فى العهد الموسوى، بيد الكاتب المتأخر الذى خلط بين العهدين، وذلك فى قصة تضحية إبراهيم بابنه لربه، وطقس التضحية يرتبط عادة بآلهة الخصب والرى، طلباً للغيث والرى، كما يرتبط بطقس الجنس الجماعى، والموضع الذى ذهب إبراهيم ليضحي فيه بولده يأتى فى النص القائل «فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع «يهوه يراه» (تكوين ٢٢-١٤)، وهنا يرد (يهوه) بمعنى الإله مضافاً إلى (يراه) فهو إله الرى، وفى أكثر من موضع نجد اسحاق بن إبراهيم يسمى بئر هذه المنطقة «بئر لحي رثى»، أو ما افترضنا «بئر لحي رثى» أى إله الرى وليس إله الرؤية بمعنى البصيرة (التكوين ٢٤-٢٢-٢٥-١١).

وهناك أمر يرتبط بهذا الإله هو إشارة المؤرخين العرب والمسلمين إلى هبوط النبى إبراهيم مع هاجر وولدها إسماعيل جزيرة العرب، لكن التوراة لم تشر إلى هذا الأمر بوضوح، وإن كنا قد استطعنا أن نعثر على متفرقات بالتوراة، يمكن أن تربط بين إبراهيم وجزيرة العرب، وأثبتناه بالأدلة فى بحثنا (النبى إبراهيم والتاريخ المجهول - سينا للنشر)، ويرتبط أيضاً بهاجر وبالإله الذى التقت به عند البئر (إله رثى)، وطقس ذبح الابن الذى كاد أن يقوم به النبى إبراهيم، (وهو أحد طقوس عبادة الخصب، حيث كانت التضحية بالابن البكر شرعة واجبة فى عبادات الخصب بطول المنطقة وعرضها فكان العباد يذبحون البكر ويحرقونه فى حجر الإله).

والتوراة تورد الأمر الإلهي لإبراهيم بقولها: «خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحق، واذهب إلى أرض المريا، وأصعده هناك محرقة» (تكوين ٢٢-٢) لذلك «دعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يهوه يراه، حتى إنه يقال اليوم فى جبل الرب يرى» (تكوين ٢٢-١٤).

والنص يعنى أن الرب أمر إبراهيم بذبح ابنه إسحق، وهو ما لا يتفق مع شرعة التضحية بالبكر، والبكر هو إسماعيل، والعرب والمسلمون يؤكدون أن الذبيح كان إسماعيل، وهو ما يتسق مع تلك الشرعة القديمة، وإذا كان إسماعيل فى التوراة، وفى كتب التراث الإسلامى هو الجد البعيد لعرب الجزيرة، فإن ذلك كله يذهب بنا إلى جزيرة العرب، فى رحلة إبراهيم مع هاجر وإسماعيل حيث تركهما هناك، لكن بعد أن كاد يضحى بولده فى (أرض المريا) لذلك سُمى الموضع (يهوه يراه) وأنه يسمى حتى اليوم، أو بتعبير التوراة: يقال اليوم (جبل الرب يرى)، وهو ماتعنيه تماماً اللفظة العربية (المروة)، التى تتركب من ملصقين هما (إل=إله) و(مروة) أو (مروى) وتشير إلى الرى والخصب.

ولم تزل (المروة) موضعاً مقدساً فى بلاد الحجاز، باعتقاد أن قدسيته موروثه منذ أيام النبى إبراهيم، وشعيرة الهرولة بين الصفا والمروة أحد شعائر الحج الأساسية، ويتبعه ضمن الطقوس شعيرة الذبح.

ونقول كتب التراث الإسلامى: إن الصفا والمروة كانا مقدسين قبل الإسلام بزمان وظلا مقدسين فى العصر الجاهلى، وكان الجاهليون يهرولون بينهما لأنه على الصفا كان الصنم (إساف) أو (آصاف) أى يوسف، وأن على المروة كان الصنم (نائلة)، وإن يوسف فى الأسطورة قد جامع نائلة داخل الكعبة، لذا نشأ طقس الهرولة بينهما فى الجاهلية، مداً وإيصلاً لحبل الوصال بينهما، وهذا الجماع كان بدوره أحد طقوس عبادة الخصب فى الديانات القديمة. (ونلاحظ أن نائلة فى العامية نائلة، وفى العربية يعبرون عن وصال المرأة بكلمة نالها، وفى العامية المصرية: نَيْلها)

وتأسيساً على كل هذه المعانى سنقوم بالربط بين (إيل يراه) أو (إل يرخ) وبين القمر، باعتبار القمر كان يرتبط دوماً بالعبادة الخصبية التي كانت تقوم فى البوادي، والاسم (يرخ) كان أحد أسماء القمر فى العبادات السامية وله أسماء عدة مشتقة من (يراه)، فهو أيضاً (رخ)، (يرخ)، و(الورخ) و(يرح)، وكان أشهر مقار عبادته فيما يفيدنا به أنيس فريحة، المدينة التي حملت اسم (أريحا)^(١٣٠) فى فلسطين.

وإننا إذ نربط بين القمر وبين عبادة الخصب، فإننا نقيم ذلك على عدة شواهد، أهمها الاعتقاد القديم أن القمر متولد أصلاً من الهواء، والهواء هو الذى يسبب الريح (يريح)، كما أنه فى هيئة الهلال كان فى شكل قرنين، والقرنان لوازم الحيوانات التي قدست باعتبارها رموز آلهة الخصب وهى الشياه عموماً، (الثور، النيس، الخروف)، لذلك أطلق على القمر لدى الشعوب السامية اسم آخر هو (سين) اشتقاقاً من أسماء الشياه، وأسماء الشياه، فيما يفيدنا به (موسكاتى) كانت تنطق (سى) بإمالة السين إمالة طويلة، وهى التي تطورت بعد ذلك من (سى) إلى (شى) إلى (شاء) إلى (شاه)^(١٣١).

إن (إل يرى) هو إله الخصب إله القمر، وتأسيساً على فرضنا هذا وقياساً على ثوابت العبادات الخصبية فى المنطقة، يمكننا افتراض أنه كان فى الثالوث الإيلى، ابن (إل شدائى) وشدائى منها الشذى، أى الرائحة والريح والهواء، والقمر متولد عن الهواء فى اعتقادات القدماء كما أسلفنا فيكون (إل شدائى) هو إله الهواء أبو إله الخصب القمري (إل يرى).

^(١٣٠) فريحة: دراسات .. سبق ذكره، ص ٩١.
^(١٣١) موسكاتى: سبق ذكره، ص ٣١٩.

وهكذا لا يكون اليهود قد خرجوا في عهدهم الأول عن النمط السائد في العبادات الطبيعية القديمة، المرتبطة بمواطن الزرع، وبظواهر الطبيعة الكبرى، والذين عبدوا الآلهة نفسها بالموصفات والوظائف نفسها تقريباً، بينما ظل (إل) كعلم مستقل ومجرد عند الجميع، دلالة جلالية تعود أصلاً إلى السماء كجليل حمل لدى

السومريين الاسم (آن) مجرداً، ولدى الساميين الاسم (إل) مجرداً، ليظل دائماً فوق جميع الآلهة، وأبوها جميعاً.

هذا عن (إلهيم) أو مجموعة الآلهة الإيلية في العهد الإبراهيمي وما قبله، فماذا عن (يهوه) المنسوب في التوراة إلى النبي (موسى)؟

واضح أن إله السماء توارى بمرور الزمان وأصبح رمزاً غير واضح، بينما قفز الإله الابن ليحتل مكان الصدارة في ديانات المنطقة، فأدونيس الفينيقي يبرز ويصبح فوق جميع الآلهة، وبعل الكنعاني يزيح الأب إيل تماماً ويصبح هو محور العبادات، ومن قبل تقدم إنليل السومري على أبيه آن، بل وظهر المسيح الابن في الديانة المسيحية بنص الأناجيل «كما الوحيد من الأب» ليصبح هو المعبود الرئيسي الأول، بينما توارى الأب تماماً، ثم في المذاهب الشيعية في الإسلام، المنعوتة بالمتطرفة، تم إحلال الحسين في المقام الأول بعد أن أزاح من الوجدان أباه (على) أو الإله العلى، وبنفس الطريقة أزاح الإله الابن (يراه) الأب وحل محله ليصبح هو إله الهواء وإله الري وإله القمر والإله الثور معاً، ولكن باسم (يهوه).

وإن استيلاء الابن على سلطات أبيه في المجامع الإلهية، هو بالاستفادة من النظرية الفرويدية، ترديد لما حدث في المجتمع الإنساني على الأرض، حيث كان يحل الابن القوى دائماً محل أبيه الذي ظل مطلق السلطات

طوال فترة تمتعه بالقوة الجسدية، حتى إذا ما كهل وظهرت عليه بوادر الضعف، قفز أقوى الأبناء إلى المقدمة واستولى على القيادة.

وقد جاءنا من نصوص آثاريات (أوغاريت) الكنعانية الفينيقية نصوص تشير إلى أن الإله (إيل) أب طاعن في السن عاجز عن إدارة شئون مملكته، تواق إلى أن يحمل ابنه أعباء وظيفته الإلهية عنه، وأعلن في عدة نصوص تعيين ابنه خليفة له^(١٣٢)؟

ولما كنا برأينا متفردين في القول بتفوق (إل يراه) بالتحديد، وأنه هو الذى أصبح يحمل اسم (يهوه) بعد مجموعة الآلهة الإيلية (ألوهيم)، فنحن نحتاج مزيداً من الأدلة حتى يتسم رأينا بالوجاهة المطلوبة.

لقد عرضنا فرضنا: أن (إل يراه) هو إله القمر المتولد عن (إله الشذى) أو الهواء أو الريح (إل شداى)، وأنه مرتبط بالرى والخصب، وأن أهم رموزه هي ذات رموز آلهة الرى في مختلف العبادات الخصيبية، وهي الشياخ (الثور، التيس، الخروف)، وأنه ربما صاحبه طقوس الخصب المعروفة في عبادات الخصب كالتضحية بالأطفال على مذبحه، وممارسة نوع من طقوس الجنس لحض الطبيعة على الإخصاب والعطاء نباتاً وحيواناً.

وبالبحث عن دعم، نجد التوراة تحكى لنا: أنه من بين أسباط يعقوب (إسرائيل) من دخل مصر مع يوسف، حين كان مؤزراً على خزانة مصر، وهناك تكاثروا وتناسلوا، ومن سبط ليفى أو لاوى كان النبي موسى، وإن موسى هرب من مصر إثر جريمة قتل فيها مصرياً، انتصاراً ليهودى من بنى جلدته، بعد أن تحولوا من سادة إلى عبيد، وأن هروبه كان إلى قبائل (مديان)، وهناك تعرف إلى كاهن مدين المدعو (يثران) وتزوج ابنته، وعاش معه زماناً يرعى الغنم فى تلك البوادي، وهناك:

(١٣٢) د. فريجة: دراسات .. سبق ذكره، ص ١٩٧: ٢٠٩.

جاء إلى جبل الله حوريب، وظهر له ملاك الرب بلهب نار من وسط عليقة، فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق، فقال موسى: أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم. لماذا لا تحترق العليقة؟ فلما رأى الرب أنه مال لينظر، ناداه الله من وسط العليقة، وقال: موسى، موسى، فقال: هأنذا، فقال: لا تقترب إلى هنا، اخلع حذاءك من رجلك، لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة.. هكذا تقول لبنى إسرائيل: أهيه أرسلنى إليكم، وقال الله أيضا لموسى: هكذا تقول لبنى إسرائيل يهوه.. أرسلنى إليكم، هذا اسمى إلى الأبد. (خروج ٣-١: ١٥)

إن، ميلاد (يهوه) فى أفق الديانة اليهودية، بدأ من تمثله فى نار تلتهب فى عليقة، حيث التقى بموسى وأعلنه بقرار ربوبيته لليهود، ودعماً لفرضنا المطروح، ما نجده عند الآثاري (ديتلف نيلسن)، الذى قطع بأن (يهوه) كان إلهاً للقمر، تأسيساً على ما لاحظته من شواهد أهمها:

▪ أن التوراة عندما كانت تتحدث عن تجليات (يهوه) نفهمنا باستمرار أن هذا التجلى لم يكن يحدث إلا ليلاً.

▪ أن يوم السبت المقدس، والأعياد الأسبوعية الأخرى فى الطقوس اليهودية ترتبط بأيام المحاق الثلاثة، وترتبط كل شهرين بمواقع القمر.

▪ أن تعبيرات التوراة عن ظهور الإله (يهوه) هى اصطلاحات فلكية قمرية معروفة.

▪ أن ظهور (يهوه) فى سيناء لليهود، ارتبط بوقت ظهور القمر فى اليوم الثالث من الشهر القمري.

▪ أن أهم مواقيت تقديس (يهوه)، تكون فى اليوم الأول من الشهر القمري ومنتصف الشهر عندما يكون القمر بدرًا.

▪ أن مواعيد الأضاحى المقربة إلى (يهوه) حسب الأوامر المدونة بالتوراة كانت ترتبط بمواطن القمر، وبتزايد عددها مع نضوج القمر، حتى استوائه بداراً في الرابع عشر من الشهر، فيذبحون أربعة عشر أضحية^(١٣٣).

ونضيف إلى نيلسن ملاحظتاتنا:

إنه وإذا كانت ديانات الخصب قد اعتبرت الشياه وعلى رأسها الثور، رمزاً لإله القمر، للتشابه بين الهلال والقرنين، فهو ما لم تخرج عنه التوراة، ومن أمثلة ذلك:

▪ أن أتباع موسى إبان رحلة الخروج، انتهزوا فرصة غيابه فوق الجبل لكي يحضر فصنعوا ثوراً من ذهب، ووقفوا يرقصون حوله عراة، وهو ذات الطقس التبعدي في مختلف ديانات الخصب (خروج ٣٥).

▪ تزعم التوراة أن موسى أمر بصنع تابوت بمواصفات محددة، ليأخذ (يهوه) مرقداً له، وإن هذا التابوت هو الذي وضعه الملك (سليمان) بعد ذلك في هيكل عظيم، صنع للتابوت خصيصاً في أورشليم، وأنه كان لهذا الهيكل مذبح، وعلى المذبح تمثال لرأس ثور كبير، له قرنان عظيمان^(١٣٤).

ويذكر سفر الملوك الأول: أن الملك سليمان قتل أخاه أدونيا، وذبح قائد جيشه يوب، وهو ممسك بقرون المذبح يستجير بيهوه^(١٣٥) أما جميع زخارف المعبد فكانت تيراناً مقدسة^(١٣٦)، ويؤكد (ديورانت): «أن

(١٣٣) نيلسن: الديانة.. سبق ذكره، ص ٢٢٣.

(١٣٤) د. شلبي: سبق ذكره، ص ١٨٤.

(١٣٥) نفسه: ص ١٦٩.

(١) يعقوب السيد بكر: تعليقاته وهامشه على ترجمه لكتاب موسكاتي السابق ذكره، ص ٣٤٩.

(٢) ديورانت: سبق ذكره، ص ٢٣٨.

بنى إسرائيل لم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والتيس»^(١٣٧).

▪ أن الملك اليهودي (يربعام) بنص التوراة «عمل عجلي ذهب وقال لهم: عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم، هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر، ووضعت واحداً في بيت إيل، وجعل الآخر في دان» (ملوك أول ١٢-٢٩، ٢٨).

▪ أو ما جاء في النص التوراتي عن هارون أخى موسى «فأخذ ذلك (الذهب) من أيديهم، وصوره بالأزميل وصنعه عجلًا مسبوكاً، فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل» (خروج ٣٢-٤).

▪ ولنذكر قارئنا بأمور عدة لم يقف عندها الباحثون، وأهمها هو: لماذا تحول الجبل المقدس، الذى التقى فيه موسى برب لهيب العليقة، من جبل (حوريب) إلى جبل (الطور)؟ ولماذا كان اسم كاهن بلاد مديان حيث التقى موسى بربه، وحيث تزوج بنت هذا الكاهن، لماذا كان يحمل اسم (يثران)؟ ويثران مع ظاهرة القلب فى الساميات تصبح (يثران)!!

ونحن نعلم أن كهنة الآلهة، كانوا يتزيون عادة بزى الإله، وأكدت ذلك نقوش آلهة الخصب وكهنتها بطول المنطقة وعرضها، وصورت كهنة الثور يلبسون تاجاً ذا قرنين.

ومما يدعم وجهة نظرنا فى أن اللفظة (يثران) أو كما وردت مقلوبة — بالميتاتيز — (يثران) هى لقب كهنوتى لكبير كهنة الإله الثور، هو أن أول ذكر لهذا الكاهن فى قصة لقاء بناته بالنبي موسى، عندما كان موسى هارباً من مصر إلى مديان، تقول: «وكان لكاهن مديان سبع بنات، فأتين واستقين ومالأن الأجران ليسقين غنم أبيهن، فأتى الرعاة وطردوهن، فنهض موسى وأنجدهن، وسقى غنمهن، فلما أتين إلى

رعوثيل أبيهن.. قلن: رجل مصرى أنقذنا من أيدي الرعاة» (خروج ٢-١٦:١٩).

وقد تكرر ذكر هذا الكاهن بالاسم (رعوثيل) عدة مرات كما في النص «وقال موسى لحوياب بن رعوثيل المديانى حمى موسى: إننا راحلون إلى المكان الذى قال الرب أعطيكم إياه» (عدد ١٠-٢٩)، مما يفيد أن هذا المكان كان يحمل اسم رعوثيل ويقلب لقباً وظيفياً (الثور).

▪ وأنه ما علينا إلا أن ننطق اسم (يهوه) نطقاً دقيقاً (جاهوفاه JAHUVAH) حتى نجدنا نقلد خوار الثور بكل دقة! خاصة مع تدقيق (لودز LODS) فى النطق الصحيح لاسم هذا الإله، ووجوب نطقه بفتح ثم ضم فسجول طويلة^(١٣٨) (والغريب مع ذلك، أن لودز لم يلحظ العلاقة بين النطق بهذا الشكل وبين خوار الثور).

ثم، وحتى ندعم فرضنا أكثر، سنضطر إلى تسجيل أمر هام لاحظناه، وهو التلبس الواضح للإله (يهوه) بالإله الكنعانى (بعل مولوخ) منذ مراحل المبكرة (والبعل مولوخ) ينطق أيضاً ويكتب (بعل مولوك والبعل الملك). ويعنى السيد الملك، أو الرب الملك، وكان ذا غرام خاص بدماء الصغار وكانت له احتفالات يأخذ الناس زينتهم فيها، كأنهم فى يوم عيد، وكانت دقات الطبول وأصوات المزامير تطغى على صراخ أطفالهم، وهم يحترقون فى حجر الإله، وقد حدث فى قرطاجنة أثناء حصارها سنة ٣٠٧ ق.م، أن أحرق على مذبح هذا الإله الدموى مائتا غلام من أرقى أسرها، كما كشفت حفائر (كفر الجرة) عن صندوق يضم عظام أطفال، تحت أساس عمود كضحية تأسيس، لبعل مولك، أو الملك.

(١) Lods (A): Israel from its beginnings to the middle of the Eighth century, London, ١٩١٣, PP ٣٢١-٣٢٢.

ومن القصص المشهورة قصة (ميشا) ملك (موآب) الذي ضحى بابنه البكر ليفك الحصار عن مدينته، ولما أجابه البعل، ذبح سبعة آلاف يهودى شكراً وعرافناً.

وملاحظتنا عن تلبس (يهوه) بالإله (بعل مولك)، تبدأ من شغف (يهوه) بدوره بدماء البشر، فهذا الملك (يفتاح) ينذر للرب نذراً قاتلاً: «إن دفعت بنى عمون ليدي، فالخارج الذى يخرج، للقائى عند رجوعى بالسلامة من عند عمون، يكون للرب، وأصعده محرقة.. ثم أتى يفتاح إلى المصفاة إلى بيته، وإذا بابنته خارجة للقائه.. وهى وحيدة ولم يكن له ابن ولا ابنه غيرها.. ففعل بها نذره الذى نذر» (قضاة ١١-٣٠:٣٩) ثم انظر مثلاً آخر: «وسلمهم إلى يد الجعبونيين، فصلبوههم على الجبل أمام الرب» (صموئيل الثانى ٢١-٩)، أو «فحمى غضب الرب على إسرائيل، فقال الرب لموسى خذ جميع رؤوس الشعب، وعلقهم للرب مقابل الشمس، فيرتد حمو غضب الرب» (عدد ٢٥-٤، ٣)، أما النبى (إرميا) فيعلنها صريحة ويقرر أن اليهود كانوا يقدمون أطفالهم مذبحين محروقين على مذبح البعل الملك (إرميا-٩).

ومع مزيد من المطالعة فى التوراة يتأكد فرضنا، حتى نكاد نزع أن (يهوه) لم يكن شيئاً آخر غير (البعل الملك)، ولنعد إلى لقاء موسى بيهوه النارى، والنص يقول: «وظهر له ملاك الرب بلهب نار من وسط العليقة» ومع التعبير (ملاك الرب) يستمر النص فيقول: «ناداه الرب من وسط العليقة.. هكذا تقول لبنى إسرائيل: (يهوه) أرسلنى .. إليكم» فما المعنى إذن؟ هل كانت نار العليقة ملاك الرب، أم الرب (يهوه) ذاته؟ الواضح فى النص أنها الرب بذاته، إذن ما هو تفسير (ملاك الرب)؟ لقد حاولت فى بحث سابق (القمر الأب أو الضلع الأكبر فى الثالث) تفسير هذا التضارب المتواتر بكثرة فى التوراة ما بين ملاك الرب، و(الرب)، بأن كاتب هذه الأجزاء من التوراة من الكتاب المتأخرين (حوالى ٤٠٠ ق.م فى الأسر البابلى وبعده)، وأن فكرة

الألوهية كانت قد سارت حثيثاً في تطورها نحو التوحيد، مما حدا بالكاتب إلى محاولة تقاضى التعدد عند الحديث مثلاً عن الذين دمروا سدوم وعمورة (وهم ثلاثة) فكان يضطر إلى إثبات المعلومة الأصلية المعددة، ثم يتحايل بالقول أنهم ملائكة، لكنى — لوجه الحق — لم أعد مقتنعاً تماماً بصدق هذا التفسير، لذلك لن أثبته الآن أو أنفيه، إنما أضيف إليه تصوراً جديداً أو فرضاً جديداً أكثر تماسكاً وقبولاً، أبدأه بافتراض وجود خطأ واضح ربما كان في ترجمة النصوص الأصلية فلا شك أن (ملاك الرب) إنما هي أصلاً (الرب الملك) أو (البعل مولك، مولوخ)، ويدعم ذلك أن تعبير (ملاك الرب) يرد تبادلياً في مواضع كثيرة بالتوراة مع تعبير (الإله أو يهوه)، ومن هنا لا شك يراودنا إذا قلنا أن (يهوه) لم يكن شيئاً آخر غير (البعل مولك) أو (الملك)، منادى بالاسم اليهودى الجديد (يهوه).

ونلاحظ أن (شئادة) يرى معنى الاسم (يهوه) هو معنى سقط^(١٣٩) ولنلاحظ أن هوى فى اللغة تعنى سقط وارتفع فى آن معاً، فهو الهواء، وهو ما ذهب إليه (فلهاوزن) حين اعتبر (يهوه) إله الريح^(١٤٠)، وقد خرج المرحوم العقاد باعتقاده أن الاسم (يهوه) من مادة الحياة (يحو)^(١٤١)، وهو ما يذكرنا بالتعبير التوراتى المتواتر عن (إل رثى) بأنه مرة (يهوه رثى)، ومرة (لحى رثى)، ولنلاحظ أن الهواء سبب (الحياة)، والأقدمون اعتبروا (الروح) سر الحياة من (الريح) أو الهواء والنفس، وحملت لنا اللغة اشتقاقاتها من جذر واحد، وعليه فإن فرضنا أن (يهوه) كان إلهاً للهواء والريح مرموزاً له بالشيء، مع استفادتنا بمذهب (ديتلف نيلسن) أنه كان إلهاً للقمر، قد أصبح فرضنا مدعماً بشكل كافٍ، وقد ألمح الباحثون إلى ارتباط (يهوه) بالبراكين، وعدوه إلهاً بركانياً ولنا هنا إضافات تثرى هذا المعنى فإذا ربطنا بين ظهور القمر بجاذبيته التى تسبب ظاهرة المد، كما تسبب أيضاً فوران

الهامش الأول. Atertu mer.

(١) Stade (B): Lehrch der hebraischen (J): Die Biblischen

(١) walihausen (J) : Die Bibli schen Atertumer

انظر أيضاً هوامش يعقوب سيد بكر على كتاب موسكاتي السابق ذكره ص ٢٨٦. (١٤١) عباس العقاد: الله، كتاب الهلال سبتمبر ١٩٤٢، ص ١١٣.

البراكين النشطة، فإن ذلك يؤدي إلى ارتباط القمر بالبراكين في أذهان الأقدمين، ولو طبقنا ذلك على (يهوه) كقمر سنجده مرتبطاً بالبراكين ارتباطاً مثيراً، حيث نجد صفات (يهوه) في التوراة صفات بركانية دون لبس، فهو قد ظهر - أولاً لموسى في هيئة نار في عليقة، كما كان يتمثل لموسى وأتباعه إبان رحلة الخروج «نهاراً في عمود سحب.. وليلاً في عمود نار» (خروج ١٣-٢١)، وهو المشهد الذي تتجلى به البراكين، فهي إبان النهار يطغى ضوء الشمس على إشعاع لهيبها المختفى في الفوهة، فلا يرى منها غير دخانها، أما ليلاً فيتضح مشهد النيران واللهيب.

كما خلعت التوراة على (يهوه) صفات، ليست سوى صفات مسئول كبير عن البراكين وهولها في تصور العقل القديم فهي تصفه بأنه «إله يسخط كل يوم» (مزامير ٧-١١)، وأنه «يمطر.. فحاصاً ناراً وكبريتاً وريح السموم» (مزامير ١١-٦)، وأنه ينادى عباده أمراً «اعبدوا الرب بخوف واهتفوا برعده». (مزامير ٢-١١) وأنه إذا غضب «صعد دخان من أنفه ونار من فمه» (مزامير ١٨-٨)، وأنه إذا تجلى صاحبه «رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل.. وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار، وصعد دخانه كدخان الأتون، وارتجف كل الجبل جداً» (خروج ١٩-١٦-١٨)، أما صفته الدائمة المتواترة في نصوص التوراة فهي «الرب إلهك هو نار آكلة» (تثنية ٤-٢٤) أما أوضح تعبير توراتي عن ارتباط ظهور القمر بجاذبيته، بظهور الإله (يهوه) بثورة البراكين، فهو ذلك النص الذي لا يحتاج تعليقا: «.. جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وعن يمينه نار شريعة لهم» (تثنية ٢٣-١) مع ملاحظة أن اسم الجبل الذي أشرق منه الإله (يهوه) أو القمر، يحمل اسم (سعير)، والسعير يدل على هوية هذا الجبل المستعر بالنار الذي تلألأ منه الإله وعن يمينه نار. أما الأكيد فهو أن ابن (إيل) كان (البعل الملك)، وفي النصوص الأوغاريتية الكنعانية يقول الرب (إيل):

«اسم ابني ياو»^(١٤٢)، و(ياو) ليس شيئاً آخر غير (ياهو) أو (إهيه) أو (ياه) أو (يهوه)، أسماء رب اليهود فى العهد الموسوى، كما وردت فى التوراة!! (ولنلاحظ أنه عندما جاء الإسلام أعطى ملاك أو خازن النار فى السعير الاسم مالك)؟!!

وعليه نقرر أن اليهود عبدوا فعلاً (الملك) باسم (يهوه) فى الغالب وعبدوه أحياناً أخرى بالاسم (الملك) صراحة كما رأينا فى سفر النبى أرميا. وأنهم تحاشياً لهذه الوصمة الكبرى التى تهدم أعمدة الفكر الدينى اليهودى المتسم بالذاتية والاستقلالية والخصوصية التامة، حيث زعموا أن (يهوه) اختارهم من بين العالمين عبداً له، بينما هو أحد آلهة شعوب المنطقة، وأنه كان معبود اليهود فعلاً وإلا ما حرمته ونهت عنه التشريعات الموسوية، أقول: تحاشياً لذلك استخدم اليهود الاسم (يهوه) بدلاً عن (الملك)، ذلك الاسم الذى حمل من المعانى الكثير أوردناها سلفاً، لكنه حمل أيضاً معنى نداء الغائب فى العبرية تحاشياً لنداء الرب صراحة باسمه (بعل مولوك) أو (الملك)، ولم تكن التسمية (يهوه) كنداء للغائب (هو) كما ذهب الباحثون التوراتيون احتراماً للذات الإلهية (كما فى رأى سميث مثلاً)^(١٤٣) إنما تغطية لاسم المعبود الأسمى، الذى كثيراً ما ظهر فى الترجمات بالاسم (ملك الرب) بدلاً من الترجمة الحقيقية (الرب الملك) أو (البعل مولوك) أو مالك .

لكن ذلك لا يعنى أن اليهود، قد انتقلوا من عبادة مجموعة الآلهة الإيلية (إلوهيم)، إلى عبادة إله واحد باسم يهوه، فالأمر لم يكن كذلك، ولم يكن (يهوه) هو إله اليهود الوحيد بعد العهد الموسوى، إنما كان هناك عدد آخر من العبادات لحق بعبادة (يهوه) وعدداً من الآلهة عبد فى الوقت ذاته إلى جوار (يهوه) حتى فى داخل هيكله، وقد سجلت التوراة ذلك دونما حرج، وتواجدت هذه الآلهة طوال العصر الممتد من موسى حتى ظهور الأنبياء

^(١٤٢) السواح: سبق ذكره، ص ١٠٨ .
^(١٤٣) أحمد شلبي: سبق ذكره، ص ١٧٦ مأخوذ عن

الموحدين (أمثال أشعيا ودانيال، وظهروا متأخرين، قبل القرن السابق للميلاد بقليل).

فإلى جوار (البعل الملك) أو (يهوه) عبد اليهود عدداً آخر من البعول مثل (بعل فغور)، الذى ورد فى النص التوراتى «وتعلق إسرائيل ببعل فغور، فحمى غضب الرب على إسرائيل» (عدد ٢٥-١:٥) ومثل البعلة، زوجة بعل مولك (البعلة الملكة، أو ملكة السماوات، بعليث مولوخ) المعروفة بالأنثى الإلهية (إناث). إذ قالت التوراة بلسان اليهود «بل سنعمل كل أمر خرج من فمنا، فنبحر لملكة السماوات، ونسكب لها سكائب، كما فعلنا نحن وآباؤنا وملوكنا رؤساؤنا فى أرض يهوذا، وفى شوارع أورشليم، فشبنا خبزا، وكنا بخير..» (أرميا ٤٤-١٧).

بل إن بعض كبار ملوكهم مثل سليمان، عبد مثل هذه الآلهة صراحة وهو مانراه فى النص التوراتى «حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجب الموابيين، على الجبل الذى تجاه أورشليم، ولمولك رجب بنى عمون» (ملوك أول ١١-٧) وبالمناسبة: هل كموش غير جموش أو بالعربية جموس أو جاموس؟ لفتة تشير بها إلى إنه بدوره كان إلهاً للخصب.

ثم إنهم عبدوا أيضاً (تموز) إله الخصب الرافدى، ومارسوا طقوس الندب والبكاء عليه باعتباره إلهاً شهيداً، كما ظلوا على عبادة الشمس فترة طويلة وهو ما يفهم من رواية النبى حزقيال، عندما ذهب إلى الهيكل: «وإذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز.. وإذا عند باب هيكل الرب وبين الرواق والمذبح نحو خمسة وعشرين رجلاً، ظهورهم نحو هيكل الرب، ووجوههم نحو الشرق وهم ساجدون للشمس» (حزقيال ٨-١٤:١٦).

ولا تنى التوراة تؤكد أنهم عبدوا مجموعة البعول والبعلات الملقبات باسم (عشتارت) من عشتروت الرافدية، فتقول: «عبدوا البعليم (جمع بعل) والعشتاروت (جمع عشتار) وآلهة آرام وآلهة صيدون، وآلهة

مؤآب؁ وآلهة بنى عمون وآلهة الفلسطينيين» (قضاة ١٠-٦) أو باختصار؁ أنهم شاركوا فى عبادة كل آلهة المنطقة.

ومن المقدسات الشبيهة بالآلهة عند اليهود؁ وربما كانت أدنى قليلاً؁ كائنات أسمتها التوراة (الكروبيم) جمع (كروب)؁ وكان تصورهم لشكل (الكروب) محيراً؁ فهو يظهر مرة على أنه طير ربما كان نسرأ؁ لكنه بعد ذلك يأخذ شكل الثور المجنح؁ بوجه إنسان؁ فالأسفار القديمة تصوره فى هيئة نسر صنع له تماثلان وضع أحدهما على مقدمة تابوت العهد أو الشهادة والآخر فى مؤخرته؁ فالنص يقول: «فلما دخل موسى إلى خيمة الاجتماع؁ ليتكلم معه(الرب)؁ كان يسمع الصوت يكلمه من على الغطاء الذى على تابوت الشهادة؁ من بين الكروبيين» (عدد٧-٨٩). وينسب إلى موسى القول أنه رأى هذا النوع من الطيور قرب عرش الإله؁ وأنه لما أتم سليمان بناء الهيكل؁ جمع شيوخ اليهود «وحمل الكهنة التابوت..وأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه فى محراب البيت؁ فى قدس الأقداس؁ إلى تحت جناحى الكروبيين» (ملوك أول٨ : ١)

ويبدو لنا أن تقديس النسور فى مختلف العبادات القديمة؁ كان سببه رؤية العقل القديم لمسكن الآلهة فى السماء؁ مع قدرة هذه الطيور رغم ضخامتها على الطيران والصعود فى الأعلى؁ مما جعلها فى التصور قريبة من الآلهة؁ لذلك أعطى العقل القديم كل المقدسات القريبة من الآلهة الأجنحة والقدرة على الطيران حتى تتمكن من الصعود إلى مقر الآلهة أو الهبوط منها؁ وهو ما نلاحظه فى صفات الملائكة؁ وقد قدست معظم الشعوب القديمة النسر وبخاصة العرب الجنوبية وقد أشار القرآن الكريم إلى عبادة (نسر) ضمن مجموعة آلهة عربية قديمة فى قوله: (ولا تذرنا دأ ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً) (٢٣- نوح).

أما الصورة الثانية للكروب؁ كثور مجنح برأس إنسان؁ فتأتى فى الأسفار المتأخرة؁ حيث نجد النبى حزقيال يصفه كالاتى: «لها شبه إنسان؁ ولكل واحد أربعة أوجه ولكل واحد أربعة أجنحة..أيدى إنسان تحت

أجنحتها.. أما شبه وجوها فوجه إنسان ووجه أسد.. ووجه ثور.. وجه نسر» (حزقيال ١-٢٥)، وقد نقشت تماثيل هذه الكائنات الإلهية على جدران المعبد اليهودي ومع التحول نحو التوحيد (عند إشعيا وأرميا) تحولت الكروبيم إلى الدابة التي يستخدمها الإله في الركوب، فكان لابد لدابته أن تتميز عن حمير وخيول البشر، بما يليق بمكانته، فأضيف إليها وجه الإنسان، والأجنحة. «ركب على كروب وطار وهف على أجنحة الرياح» (مزامير ١٨-١٠)

وغنى عن الذكر أن مثل هذه الكائنات بقي محفوراً في الديانتين المسيحية والإسلامية، ففي المسيحية تصادفنا (الكروبيم) في حفل أو (بارتى) إلهي تغنى قداساً إلهياً (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٤-٦: ١١)، أما في الإسلام فقد جاءت الدابة الإلهية (كروب) منطوقة (قروب)، ومع ظاهرة القلب المعروفة في اللغات السامية تحولت (كروب)، أو (كراب) إلى (براك)، أو (براق) وهو دابة سماوية بوجه إنسان وجسم مجنح، حملت النبي محمداً ﷺ من مكة إلى القدس في قصة الإسراء المعروفة، كما كان للبراق باسمه العبري (كروب) شأن في كتابات التراث الإسلامية، لكن بعد أن تحولت مع التطور إلى أملاك للإله الواحد، فهي ملائكة له، فأصبحوا سادة الملائكة^(١٤٤) وباعتبارهم دواب ركوب وحمل، فقد جاءوا كحملة للعرش الإلهي في الإسلام^(١٤٥) كما كانوا مركباً ليهوه وتابوته من قبل، وقد صادق النبي محمد ﷺ على بيت من الشعر الجاهلي لأمية بن عبد الله يصف الكروب يقول فيه:

رجل وثور تحت يمنى رجله والنسر لليسرى وليث ملبد

وجاء تصديق النبي في تعقيبه على هذا البيت بقوله:

^(١٤٤) الزمخشري: الفائق، طبعة محمد أبو الفضل وعلى الباجري، ج ٢، القاهرة ١٩٤٧، ص ٤٠٨.
^(١٤٥) القزويني: عجائب المخلوقات، جوتنجن، ١٨٤٩، ص ٥٦.

صدق أمية في قوله^(١٤٦)؟!

ولعل صورة الكروب تلك، لا فرض آخر لظهورها، وتحولها من نسر إلى ثور مجنح، سوى القول أن حزقيال قد تأثر بشدة بالثيران المجنحة المرسومة على جدران بابل، وتمثيلها المتناثرة في أرض بابل، وكانت عند البابليين حيوانات خرافية مهمتها حراسة المواقع الهامة في البلاد، ولا شك أن حزقيال رآها هناك إبان أسر اليهود في بابل.

ونظن أن اليهود قد تمثلوا في هذا الكروب البابلي إلههم (يهوه) في فترة من زمانهم: فالوجه الإنساني الوقور يمثل الجانب البشري فيه، والثور يمثل إل رثى، بوصف الثور رمزا للخصب والرى، والأجنحة تمثل إل شداى أو الريح، والقرنان رمز للقمر.. الخ.

ثم إضافة للكروبيم كانت هناك كيانات أخرى مقدسة مثل السرافيم جمع ساراف، ويفسر (موسكاتى) ساراف أنها كانت تعنى الحية أو الثعبان^(١٤٧). وقد سبق وأقام لها موسى تماثيل مقدسة على راياته عند خروجه من مصر «فصنع موسى حية نحاس ووضعها على الراية» (عدد ٢١-٩)، ولا ننسى عصى موسى التى كانت تنقلب إلى حية، كما لا ننسى خروج موسى ورجاله من مصر القديمة حيث كانت الحية رمزا مقدسا يوضع على تيجان الفراعنة، وأن السرافيم لم تعرف فى تاريخ الديانة اليهودية قبل الخروج من مصر، ويبدو أن عبادة الحية وما يلزمه طقسها من إيقاد نار مستمرة أمامها للتبخير وتقديم قربانين البخور، قد استمر قائما فى أفق الديانة اليهودية دون أن يغضب (يهوه) أو ينزعج وهو ما تؤكد التوراة فى قولها: «حية النحاس التى عملها موسى لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها» (ملوك ثانى ١٨-٤)، هذا بينما كان (يهوه) يتفجر غضبا إذا عبدوا

^(١٤٦) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، بولاق، ١٢٨٥هـ، ص ١٦٠.
^(١٤٧) موسكاتى: سبق ذكره، ص ٣٠٥.

بعلاً آخر لأنها بعول غريبة، مثل بعل بنى موآب كموس أو جاموس أما هو فالبعل الوحيد لليهود، لذلك كان يطالبهم بالإخلاص القبلى له دون بقية البعول، وفعلاً نظر اليهود إلى بعلم بحسابه بعلاً إسرائيلياً فحسب، أحق بعبادة اليهود من البعول الأخرى، ولم ينكروا فى الوقت ذاته وجود بعول أخرى، كما لم ينكر (يهوه) ذلك، لكن إنكار الأتقياء منهم كان إنكاراً لسيادة رب غريب عليهم، ومن هنا دانوا ليهوه وحده بالولاء، فالتوراة لا تميز ربها باعتبارها رب الجميع الأوحى، إنما رب إلى جوار أبواب الشعوب الأخرى، لكنه الوحيد من بينها الجدير بولاء اليهود، انظر مثلاً:

من مثلك بين الآلهة يارب (خروج ١٥-١١)

الآن علمت أن الرب أعظم من جميع الآلهة (خروج ١٨-١١)

من يشبه الرب بين أبناء الله؟ إله موهوب جداً فى مؤامرة القديسين، ومخوف عند

جميع الذين حوله، يا رب إله الجنود، من مثلك قوى رب؟ (مزامير ٨٩-٦: ٨)

لكن التطور التالى الذى لحق بعبادة البعل الملك يهوه، ليتحول به من إله قبلى إلى عالمى، يطلب السيادة على القبائل والشعوب الأخرى، فقد جاء مترافقاً مع ظروف عالمية وتغيرات جرت بعد السبى فى الرافدين، وقام بهذه المهمة بكفاءة عالية عدد من الأنبياء، أشهرهم (دانيل وأشعيا)، اللذين كانا على علاقة سرية وخاصة بالدولة الفارسية الطالعة الطموحة، وبعلمها (كورش)، حتى اتهم أشعيا بسبب هذه العلاقة بالجاسوسية لحساب الفرس، رغم وضوح أنه كان يعمل بإخلاص لفك أسر اليهود على يد قورش، ولو مع بعض التنازلات الدينية التى لا بأس بها إزاء الغرض الأكبر، وكانت هذه التنازلات هى سبب هجوم اليهود عليه واتهامه بالعمالة، وقد استطاع أشعيا وصحبه أن يفتحوا أبواب بابل للفرس، وبعد سقوط هذه القوة الكبرى تمكن قورش من الزحف قدماً ليكون أكبر

إمبراطورية ظهرت فى الشرق حتى عهده، وباعتبار اليهود قطعة من هذا الملك الواسع، فقد تصرف الأنبياء وفق الوضع الجديد، واستغلوه سياسياً ودينياً بذكاء، فحولوا إلههم المحلى إلى إله عالمى، ولم يترددوا عن التجاسر بالقول إنه هو إله قورش ومن ثم إله الإمبراطورية، بل وسجلوا ذلك فى توراتهم، وادعوا أن قورش كان يعمل بنصح(يهوه) وإرشاده حتى بلغ بهم الأمر مبلغاً كبيراً فقالوا إن قورش هو مسيح(يهوه)المنتظر، ومخلص اليهود الذى طالما ترقبوا ظهوره ليعيدهم إلى أرضهم ليبنوا دولتهم من جديد، هذا رغم أن قورش كان رجلاً مؤمناً بديانته الزرادشتية، مخلصاً لها تماماً، لكنه لم يجد بأساً ولا حرجاً فى قليل من المجاملة لجوايسيه الخالص فتغاضى عما كان يعلنه اليهود عنه وعن الرب يهوه، مادام الأمر لم يتجاوز النطاق الدينى أو نطاقهم هم الدينى بتعبير أدق.وزاد قورش فى المجاملة فأطلق سراحهم من الأسر، وساعدهم فى إقامة هيكلهم مرة أخرى، ثم تزوج واحدة منهم (إستير) وجعلها ملكة على بابل.

وكان لتبادل هذه المجاملات والسماحات بين العاهل الفارسى العظيم وبين اليهود، دوره الفاعل فى تحول(يهوه)من إله قبلى محلى إلى إله عالمى..

وسبق ذلك عدة محاولات سريعة لتخليص (يهوه) من ارتباطه بمولك الثور ومن السرافيم (الحيات) والكروبيم (الثيران الطائرة)، فقام عدد من الأنبياء بهذه المهمة بجرأة شديدة ليعلنوا كفرهم بالإله الثور، والتنديد به والتناول عليه، فهذا يجهر قائلاً: «قد زنخ عجلك يا سامرة» (هوشع ٨-٥)وذلك الملك حزقيا بن أحاز يتبع الدعوة الجديدة، فتسجل التوراة عنه، أنه «هو أزال المرتفعات، وكسر التماثيل،وقطع السوارى، وسحق حية النحاس التى عملها موسى، لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها» (ملوك ثانى ١٨-٤)

ولذلك «أمر الملك حلقيا الكاهن العظيم، وكهنة الفرقة الثانية، وحراس الباب أن يُخرجوا من هيكل الرب

جميع الأنية المصنوعة

للبلعل (إقرار واضح بصدق فرضنا)، وللسارية ولكل أجناد السماء، وأحرقها خارج أورشليم، فى حقول
قدرون، وحمل رمادها إلى بيت إيل.. وذبح جميع كهنة المرتفعات.. وكذلك السحرة والعرافون والترافيم
والأصنام، وجميع الرجاسات» (ملوك ثانى ٢٣-٤: ٢٤).

ومن ثم جاز ليهوه بعد ذلك أن يزهو بذاته الوحيدة، فيقول على لسان أشعيا:

أنا الرب وليس آخر، لا إله سواى.. أنا الرب وليس آخر، مصور النور وخالق
الظلمة، صانع السلام (أشعيا ٤٥-٥: ٧)

أنا الأول وأنا الآخر، ولا إله غيرى وكل شيء أنا أعلم به.. أنا الرب صانع كل
شيء، ناشر السموات وحدى، باسط الأرض، من معى؟ (أشعيا ٤٤-٦: ٢٤)

الجالس على كرة الأرض.. الذى ينشر السموات كسرادق، ويبسطها كخيمة للسكن،
الذى يجعل العظماء لا شيئاً (أهل بابل)، ويصير قضاة الأرض كالباطل.. فىمن تشبهوننى
فأساويه؟ (أشعيا ٤٠-٢٢: ٢٥)

وهكذا تكفل أشعيا بإشاعة أن يهوه قورش وناصره، ومن ثم هو إله الإمبراطورية والعالم، ولم يعترض
قورش المجامل على جواسيسه الذين كانوا ينقلون له أخبار بابل ومختلف الشعوب أولاً بأول بوفاء جلى.

أما دانيال النبى فقد تكفل بمهمة أخرى، فقام يرد تحية قورش بأحسن منها، فأدخل إلى اليهودية عقيدة
جديدة لم تكن فيها أبداً من قبل، أخذها عن ديانة كورش (الزرادشتية) ليكون هذا المزج السدنى كفيلاً بتحقيق

الأهداف المرجوة فقد ظل اليهود طوال عصورهم يعتقدون أن الموتى جميعاً يرحلون إلى العالم تحت أرضي، صالحهم وطالحهم، ذلك العالم الذي أسمته التوراة (الهاوية) و(شبول) وأكدت التوراة هذا المعنى، فهي تقول: «من جهة أمور بنى البشر، إن الله يمتحنهم ليريهم أنه كما البهيمة هكذا هم.. موت هذا كموت ذلك، ونسمة واحدة للكل»

(جامعة ٣-١٨:١٩)

وكان أعظم عقاب ربانى يلحق بإنسان، هو أن يموت، حتى أن الله ذاته كثيرا ما كان يلجأ إلى هذا السلاح السريع المفعول لإنزال عقابه على العصاة، فيميتهم ليذهبوا إلى عالم تحت الأرض (الهاوية)، أما الإنسان المخلص ليهوه، فكان يهوه يزيد فى سنى عمره وفى حياته الدنيوية الأرضية.

فالتوراة تحكى: «وكان عير بكر يهوذا شريراً فى عينى الرب، فأماته الرب» (تكوين ٣٨-٧). وهذا «أونان.. أفسد على الأرض.. فقبح فى عينى الرب ما فعله، فأماته أيضا» .

(تكوين ٣٨-١٠، ٩). وذلك الملك النقى الورع (حزقيا) يخبر النبى أشعيا بقرب موعد موته، ويرجوه أن يتوسط له لدى الرب يهوه، وأن يذكر (يهوه) بأفضاله عليه، فينقل أشعيا الرسالة ليهوه، ويتلقى الرد «اذهب وقل لحزقيا هكذا يقول الرب إله داود أبوك قد سمعت صلاتك، قد رأيت دموعك وهأنذا أضيف إلى أيامك خمس عشرة سنة» (أشعيا ٣٨-٦).

لذلك فإن «مخافة الرب تزيد الأيام، أما سنو الأشرار فتقصّر» (أمثال ١٠-٢٧)، لأن شبول تساوى بين الجميع، «هذا يموت فى معظم وفرة وقد عمته الدعة والطمأنينة وذلك يموت فى مرارة ونفسه لم تذق طيبا، وكلاهما يضطجعان فى التراب، فيكسوهما الدود، فمن الذى يبين طريقه، ومن يكافئه على ما صنع؟»

(أيوب ٢١-٣١).

لذلك كانت التوراة تؤكد أن الموتى «يضطجعون معاً لا يقومون، قد خمدوا كفتيلة انطفأوا» (أشعيا ٤٣-١٧) «يناموا نوماً أبدياً ولا يستيقظوا» (أرميا ٥١-٣٩). بل يبدو لنا في التوراة أن العالم التحت أرضى خارج عن سلطان (يهوه) وسيطرته، فهذا يرجو ربه ألا يميتَه قائلاً: «عد يارب، نج نفسي، خلصني من أجل رحمتك، لأنه ليس في الموت ذكرك، في الهاوية من يحمذك؟.. هل يحدث في القبر برحمتك؟ أو بحقك في الهلاك؟ هل تعرف في الظلمة عجائبك؟ وبرك في أرض النسيان؟» (مزامير: ٦).

حتى الأنبياء ذاتهم، عندما كانوا يتسببون في إشعال غضب (يهوه) لا يجد لهم دواء سوى القتل، وهو ما نراه في موت النبي موسى وأخيه هارون «وكلم الرب موسى في نفس ذلك اليوم قائلاً: اصعد إلى جبل عباريم، هذا.. ومات في الجبل الذي تصعد إليه.. كما مات هارون أخوك.. لأنكما خنتما» (تثنية ٣٢-٤٨: ٥١)

بل إن كبار الأنبياء كانوا يعلمون مصيرهم بعد الموت، وأنه هاوية تحت الأرض، فما هو يعقوب بنوح حزينا على موت ولده يوسف، بعد أن خدعه أبناؤه وقالوا له: لقد أكله الذئب، فيقول: «إني أنزل إلى ابني نائحا في الهاوية» (تكوين ٣٧-٣٥).

ولكن هل كان دانيال يعرف أن (كورش) سيرضى بهذا المصير ولديه في الديانة الزرادشتية نعيم مقيم بعد الموت في مكان سماوى يدعى (باراديس) أو (الفردوس)؟ هنا كانت مهمة دانيال الذكى، فقام يحول شيول إلى عالم خالد، من أجل عيون قورش، ذلك الذى أصبح مسيحا للرب ويستحق مصيرا أفضل، وبالطبع قبل قورش الهدية ممتنا شاكرا، فظهر في التوراة، سيرا على منطق الديانة الزرادشتية ولأول مرة، حديث حول قيامة الأموات: وكثير من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار إلى

الازدراء الأبدى، استيقظوا وترنموا يا سكان التراب، هلم يا شعبي ادخل مخادعك (أشعيا ٢٦-١٩)

وأضع روحى فيكم فتحيون، وأضع فى أرضكم فتعلمون أننى أنا الرب، تكلمت وفعلت

(حزقيال ٣٧-٤:١)

ومع ذلك، فقد كان عامة الشعب يعلمون أن ذلك ليس فى أصل دينهم وأن المسألة لعبة سياسة، فعاملوا هذه الأفكار الجديدة بحسبانها غشاً وتدليساً ودسا على يهوه، لذلك ظلت مثل هذه الأفكار موضع تحفظ من غالبية اليهود، وكانت محل رفض واستنكار من المتزمتين التقليديين، حتى مجيئ المسيح، الذى كان تأكيده على فكرة البعث والحساب، من أهم حيثيات الحكم عليه بالكفران بدين يهوه، ومن ثم استحقاقه حكم الإعدام صلباً.

سفر التكوين التوراتى:

لنتذكر الآن أن المدارس البحثية فى التوراة تكاد تجمع على أن سفر التكوين أول أسفار الكتاب المقدس، يُعد من بين أحدث الأسفار وليس أقدمها، وأنه دون حوالى القرن الثالث قبل الميلاد، أو قبله بقليل، أى بعد العودة من الأسر فى بلاد الرافدين.

وأول ما تظالنا به التوراة، فى أول أسفارها (التكوين)، وفى أول صفحات هذا السفر وفى الإصحاحات

الثلاث الأولى، تطلع بقولها:

- فى البدء خلق الله السموات والأرض.
- وكانت الأرض خربة وخالية.
- وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه

▪ وقال الله: ليكن نور، فكان نور، ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة، ودعا الله النور نهراً، والظلمة دعاها ليلاً، وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً.

▪ وقال الله: ليكن جلد فى وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجلد، وفصل بين المياه التى تحت الجلد، والمياه التى فوق الجلد، وكان كذلك ودعا الله الجلد سماء وكان مساء وكان صباح، يوماً ثانياً

▪ وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة.. ودعا الله اليابسة أرضاً، ومجتمع المياه دعاها بحاراً، ورأى الله ذلك أنه حسن.

▪ وقال الله: لتبت الأرض عشباً وبقلاً، يبزر بزرراً وشجراً ذا ثمر، يعمل ثمرأ كجنسه بذرته فيه على الأرض، وكان كذلك، فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً، يبزر بزرراً كجنسه، وشجراً يعمل ثمرأ بزره فيه كجنسه، ورأى الله ذلك أنه حسن، وكان مساء، وكان صباح يوماً ثالثاً.

▪ وقال الله لتكن أنوار فى جلد السماء، لتفصل بين النهار والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين، وتكون أنواراً فى جلد السماء، لتتير الأرض، وكان كذلك. فعمل الله النورين العظيمين، النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل، والنجوم، وجعلها الله فى جلد السماء، لتتير على الأرض، ولتحكم على النهار والليل، ولتفصل بين النور والظلمة، ورأى الله ذلك أنه حسن، وكان مساء، وكان صباح، يوماً رابعاً.

▪ وقال الله: لتفص المياه زحافات ذات نفس حية، وليطير طير فوق الأرض، على وجه جلد السماء، فخلق الله التنانين العظام، وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة، التى فاضت بها المياه كأجناسها، وكل

طائر ذى جناح كجنسه ورأى الله ذلك أنه حسن، وباركها الله قائلاً: أثمرى وأكثرى واملأى المياه فى البحار، وليكثر الطير على الأرض، وكان مساءً، وكان صباح يوماً خامساً.

▪ وقال الله: لتخرج الأرض نوات أنفس حية كجنسها، بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها.. فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها، والبهائم كأجناسها، وجميع دبابات الأرض كأجناسها، ورأى الله ذلك أنه حسن، وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء، وعلى البهائم، وعلى الأرض، وعلى جميع الدبابات التى تدب على الأرض، فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم، وباركهم الله، وقال لهم: أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض.. (بينما بداية الأصحاح الخامس نقول: يوم خلق الله الإنسان، على شبه الله عمله، ذكراً وأنثى خلقه وباركه، ودعا اسمه آدم يوم خلقه) ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً، وكان مساءً، وكان صباح يوماً سادساً.

▪ فأكملت السموات والأرض وكل جندها، وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل، فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل، وبارك الله اليوم السابع وقدس، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقاً.

▪ هذه مبادئ السموات والأرض حين خلقت يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات، كل شجر البرية لم يكن بعد فى الأرض، وكل عشب البرية لم ينبت بعد، لأن الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض، ولا كان إنسان ليعمل فى الأرض، ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقى كل وجه الأرض، وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض، ونفخ فى أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية.

▪ وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقاً، ووضع هناك آدم الذى جبله، وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر، وجيدة للأكل، وشجرة الحياة فى وسط الجنة، وشجرة معرفة الخير والشر.

▪ وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة، ومن هناك ينقسم فىصير أربعة رؤوس، اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة، حيث الذهب، وذهب تلك الأرض جيد هناك المقل، وحجر الجزع، واسم النهر الثانى جيحون، وهو المحيط بجميع أرض كوش، واسم النهر الثالث حدافل وهو الجارى شرقى آشور، والنهر الرابع الفرات.

▪ وأخذ الرب الإله آدم ووضع فى جنة عدن، ليعملها ويحفظها، وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت، وقال الرب الإله: ليس جيداً أن يكون آدم وحده فأصنع له مُعيناً نظيره، وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية، وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء، وجميع حيوانات البرية، وأما لنفسه فلم يجد مُعيناً نظيره .

▪ فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام ، فأخذ واحدة من أضلاعه، وملاً مكانها لحماً، وبني الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم ، فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي. هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أخذت، لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكونان جسداً واحداً، وكان كلاهما عريانين، آدم وامرأته وهما لا يخجلان.

▪ وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية ، التي عملها الرب الإله، فقالت للمرأة: أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل ، وأما ثمرة الشجرة التي في وسط الجنة، فقال الله لا تأكلا منه ولا تمسأه، لئلا تموتا فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله، عالم أنه يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما، وتكونان كالله عارفين الخير والشر، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل ، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل ، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانين، فخاطبا أوراق تين، وصنعا لأنفسهما مآزر.

▪ وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة، عند هبوب ربح النهار، فاخبتاً آدم وامرأته من وجه الرب الإله، في وسط شجر الجنة ، فنادي الرب الإله آدم وقال له: أين أنت ؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان، فاخبتأت فقال: من أعلمك أنك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها ؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة فأكلت ؟ فقال الرب الإله للمرأة: ما هذا الذي فعلت ؟ فقالت المرأة: الحية غررتني فأكلت، فقال الرب الإله للحية: لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية، علي بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك، وأنت تسحقين عقبه، وقال للمرأة : تكثيراً أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين أولاداً، وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك وقال لأدم: لأنك سمعت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكاً وحسكاً تنبت لك، وتأكل عشب الحقل، بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها، لأنك تراب وإلي تراب تعود.

▪ ودعا آدم اسم امرأته حواء، لأنها أم كل حي ، وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلد
والبسهما.

▪ وقال الرب الإله، هو ذا الإنسان، قد صار كواحد منا، عارفاً للخير والشر، والآن لعله يمد يده
ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، ويأكل ويحيا إلى الأبد.. فطرد الإنسان، وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم،
ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة.

من البين في هذه القصة التوراتية بشأن التكوين، أن هناك روايتين أصليتين تم دمجهما في قصة واحدة،
وتشير إلي ذلك دلائل شاهدة:

مرة يقوم بفعل من أفعال الخلق من سمي (الله)، وهو في الأصل العبري (يهوه) كما في النص (في البدء
خلق الله) و(قال الله)، ومرة يقوم بأفعال أخرى للخلق زعيم المجمع الإلهي (إلوهيم)، الذي ميزناه باسم (الرب
الإله)، وصيغة حديث الرب الإله تشير بوضوح سافر إلي تشاوره المستمر مع أعضاء هذا المجمع (إلوهيم)،
كاستشارته لأعضائه (نعمل الإنسان علي صورتنا كشبهنا)، أو كما في إعلامه المجموعة الإلهية بالخبر المفزع
الذي أثار القلق الشديد لدي الرب الإله (هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً للخير والشر) وإن هذا الكائن
الجديد ربما تناول وأخذ من شجرة الحياة الخالدة، فيصبح خالداً مثلهم.

في موضع يقوم الإله الخالق بصنع السماء والأرض دفعة واحدة (في البدء خلق الله السماوات والأرض،
وكانت الأرض خربة وخالية)، بينما في موضع آخر تكون السماء والأرض موجودتين أصلاً كيم ماء أزلي،
يفتقه الله عن بعضه إلي سماء وأرض.

في مشهد يقوم من لقب بـ(الله) أويهوه بإنبات النبات في الأرض، ويضع فيها حيوانها ودباباتها، بينما

في مشهد آخر نجد برية بلا عشب يقوم الرب الإله فيها بخلق آدم، ثم فجأة يضعه في مكان أرضي يسمى الجنة ليزرعها ويفلحها ويعملها ويحفظها، وفيه نباتات مختلفة، أهمها شجرتين : شجرة المعرفة وشجرة الحياة، وواضح أن هذا المكان كان موطناً تعيش فيه مجموعة الآلهة (إلهيم) مع كبيرها (الرب الإله) فقط، بدليل خشية الرب الإله أن يتجرأ مخلوقه (آدم) ويأكل من شجرة الخلد الخاصة بالآلهة الخالدة وحدها، خاصة بعدما تجرأ علي الأكل من شجرة المعرفة، مما جعله يصبح كالآلهة يميز بين الخير والشر.

هذا مع تناقض واضح يشير إلي هذا الانفصال الأكيد لروايتين مختلفتين من الأصل، تم مزجهما معاً، فنفهم في أحد مواضع قصة التكوين أن آدم عندما وضع في مقر إلهه الخالد، لم يكن محرماً عليه أكل ثمرة الخلد أساساً، بينما نفهم من موضع آخر أنه كان مخلوقاً للفناء (حتى تعود إلي الأرض، التي أخذت منها، لأنك تراب، وإلي تراب تعود).

ثم تضارب آخر، فلدينا رواية تؤكد أن عملية الخلق بدأت بخلق السماوات والأرض دفعة واحدة، فنقول الرواية: (إن الله قال: ليكن نور فخلق النهار والليل)، بينما الرواية التي نتحدث عن السماء والأرض كموجود واحد أصلي في هيئة غمر أزلي مظلم، ترجئ إيصال الإنارة إلي ما بعد فتق هذا المحيط إلي سماء وأرض.

ثم يظهر تضارب آخر بين القصتين، في كنه عملية الخلق ذاتها فإله يتخذ كل مرة قراراً للخلق بالكلمة فقط، لكنه في كل مرة كان يتبع كلمته الخالقة بعمل يدوي من صنع يديه لإيجاد الشيء المراد خلقه : (وقال الله ليكن جلد .. فعمل الله الجلد، وقال الله لتكن أنوار .. فعمل الله النورين العظيمين .. الخ).

أما أبرز الشواهد علي مزج روايتين مختلفتين في التكوين التوراتي فهو الكيفية التي تم بها خلق الإنسان الأول، ففي مواضع من القصة نجد الخالق يخلق الإنسان دفعة واحدة، ككائن واحد، يجمع في ذاته الواحدة

الذكورة مع الأنوثة (ذكراً وأنثى خلقه وباركه، ودعا اسمه آدم) ثم يفصل عنه العنصر الأنثوي من خلال المرأة الضلع أو الضلع المرأة، بينما نجد في موضع آخر إشارة مختلفة تماماً، تقول (علي صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم)، فهنا شخصان منفصلان متميزان عن بعضهما تماماً من الأصل.

ولا مجال هنا لتفسير ذلك، سوي ما أسلفناه حول طبيعة التآليه اليهودي، الذي اتخذ طورين أساسيين، أو ما أسميناها: طور التآليه الإلهيمي في العصر الإبراهيمي وربما قبل إبراهيم بزمان طويل، واعتمد ثالوثاً يرأسه الرب الإله، وطور التآليه اليهودي في العصر الموسوي وما تلاه، واعتمد مجموعة بعول أو ثيران تتسم بالصفات البركانية، مع التأثيرات التي لاشك دخلت هذا السفر إبان وجود اليهود أسري في بلاد الرافدين، حيث كان الجو الديني يعبق بسفري التكوين السومري والبابلي وهو ما نجده واضحاً في المقارنة التالية:

١- يقول: التكوين السومري: في البدء لم يكن في الوجود سوي محيط بدئي مظلم، وهذا الغمر كان

هو (نمو)، وقام الإله الهواء الريح (إنليل) بالفصل في هذه المياه بين سماء وأرض.

ويقول التكوين البابلي: في البدء كان غمر مظلم أنثى هي (تيامت)، شقها (مردوخ) كما تشق الصدفة إلى

قسمين: سماء وأرض.

ويقول التكوين التوراتي: في البدء خلق الله السموات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية، وعلي وجه

الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه. وقال الله ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه،

فعمل الله الجلد، وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد، وكان كذلك، ودعا الله الجلد سماء.

٢- يقول التكوين البابلي: إن (مردوخ) أظهر اليابسة على الماء بأنه علي سطح الماء ضفر حصيراً،

وصنع شيئاً من التراب، وخلطه مع الحصير وهذا كون لوحاً صلباً فوق المياه، وهو الأرض.

ويقول التكوين التوراتي: لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة، وكان كذلك، ودعا

الله اليابسة أرضاً.

٣- ويقول التكوين السومري: إن إنليل شاء إزالة الظلمة من علي الغمر، (فأظهر للعيان) بالنورين

العظيمين، الشمس والقمر.

ويقول التكوين البابلي: إن (مردوخ) سلط القمر علي الليل، وجعله زينة في الليل، به يعرف الناس

مواعيد الأيام، كذلك جعل الشمس للنهار.

ويقول التكوين التوراتي: وقال الله ليكن نور، فكان نور، ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور

والظلمة، ودعا الله النور نهراً والظلمة دعاها ليلاً. وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء، لتفصل بين النهار

والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين. لتتير على الأرض.. فعمل الله النورين العظيمين، النور الأكبر لحكم

النهار، والنور الأصغر لحكم الليل.

٤- يقول التكوين السومري: قامت إلهة أنثى بعجن طين، خلقت منه الإنسان الأول، بعد أن عجنّت

بمائل الخصب (أبسو وإنكى) المنى المقدس، وأن الإنكى أو الإنسى عصى أوامر إلهية، فأكل ثماراً

محرمة، أصيب بسببها بمرض في واحد من ضلوعه، حتى أشرف على الهلاك، «لن أنظر إليك بعين الحياة

حتى تموت» ولم ينقذه إلا استخراج ضلعه المريضة، لتصنع منها زوجة له، هي (نن تى) أو (ننتو) سيدة

الضلع، وتعنى أيضاً سيدة الحياة أو التى تحيي أو الوالدة، فالإنسان بذلك خلق ذكراً وأنثى معاً فى ذات

واحدة، ثم فصلا بعد ذلك.

يقول التكوين التوراتي: «يوم خلق الله الإنسان، على شبه الله عمله ذكراً وأنثى خلقه، وباركه، ودعا

اسمه آدم يوم خلق.. وقال الرب الإله ليس جيداً أن يكون آدم وحده.. فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملاً مكانها لحماً، وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة.. ودعا آدم اسم امرأته حواء، لأنها أم كل حى. « ثم يقول إن حواء الحية (وهى من حوى، وحياة، وحيا أى فرج)، وقد خدعت زوجها (إليه اشتباها) فأكل معها من ثمرة المعرفة المحرمة، وأول ما عرفاه - وهنا الغريب - أنهما عريانان؟ وهو الفعل الجنسى إذن! وهو ما ذهبنا إليه عند معالجتنا سفر التكوين السومرى.

٥- يقول التكوين البابلى: إن الدم هو سر النفس أو الحياة، لذلك كان لابد كى يوجد الإنسان حياً، أن تخلط النفس الحياة مع الطين، وكان الدم عند الأقدمين هو سر الحياة، عندما كانوا يرون المرأة المتميزة بالقدرة على الولادة تتميز بدورها بالدم الشهرى، وأن هذا الدم ينقطع عند الحمل فتصوروا أنه يظل فى الداخل ليعطى المولود حياته، وحتى يسلب التكوين البابلى المرأة هذا الحق البيولوجى، وينسبه للرجل قاموا بذبح (كنجو) ليخلطوا دمه بالطين، ويخلقوا الإنسان.

وفى التشريع التحريمى تقول التوراة: لكن احترز أن لا تأكل اللحم، لأن الدم هو النفس، فلا تأكل النفس

مع الدم (تنثية- ٢١ - ٢٣)

٥- فى الختم (المفترض أنه سومرى حسب تصنيف الآثاريين) رأينا الحية توعز للأنتى الأولى بأكل ثمار التمر (ولا تنسى الثمر المحرم الذى أكله إنكى) فتدعو زوجها لأكله، مما يؤدى إلى انتهاء الخلود الفردى وبداية خلود النوع بالتناسل، بخروج إنكى أو إنسى وزوجته (نن تى)، من أرض الخلود دلمون، وكان الخلود يتمثل فى نبتة لو أكلها الفانى خلد. وفى ملحمة جلجامش علمنا أن هذه النبتة لا تنمو إلا فى أرض الخلود (دلمون) مقر الآلهة الخالدة.

ويقول التكوين التوراتى: وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقاً، ووضع هناك آدم الذى جبله.. وشجرة الحياة فى وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر.. وأخذ الرب الإله آدم ووضع فى جنة عدن ليعملها ويحفظها وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت. (ثم خلق له حواء كما شهدنا) وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله.. فقالت الحية للمرأة: لن تموت، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما، وتكونان كالله عارفين الخير والشر، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل.. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان، فخطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر.. وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً للخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا للأبد.. فطرد الإنسان، وأقام شرقى جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة (ولنلحظ أن شجرة الخلد لم تكن محرمة أصلاً، ولكن أكل آدم من شجرة المعرفة نبه الرب الإله إلى أنه غفل عن أمر شجرة الحياة، مما اضطره إلى طرد المخلوق البشرى من موطن هذه الشجرة، حتى لا يخلد كالآلهة).

٦- والغرض من خلق الإنسان فى التكوين السومرى والتكوين البابلى، هو أن يحمل الإنسان عناء

عمل الآلهة، بأن يزرع الأرض ويعمل فيها ليحفظها.

٧- وفى التكوين التوراتى أخذ الرب الإله آدم، ووضع فى جنة عدن ليعملها ويحفظها.

٨- وفى التكوين البابلى: كان مفترضاً أن تتم عملية الخلق بالكلمة الخالقة للإله مردوخ، ومع ذلك كان

الخلق يتم دائماً بالصنعة اليدوية.

وفى التكوين التوراتى: كان الإله ينطق الكلمة الخالقة (ويبدو أنه كان لا يحدث شيء بالمرّة عند نطقها)،

لذلك كان الإله يضطر دائماً إلى صناعة الشيء المراد خلقه بالعمل اليدوى.

وفى التكوين السومرى، وبعد عناء عملية الخلق، جلست الآلهة لتستريح وفى التكوين البابلى، استوى

مردوخ على عرشه، أما فى التكوين التوراتى، عندما (فرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل، استراح فى

اليوم السابع).

المصادر الأجنبية

- (١) **Chesneaux (Jean)**: In center d'Etudes et de Recherches Marxistes (C.E.R.M) Editions Sociales, Paris, ١٩٦٩. Sur Le "Mode de production asiatique"
- (٢) **Frankfort (Henri)**: La Royauté et les dieux païotes, Paris, ١٩٥١, the Birth of Civilisation in the Near East .
- (٣) **Frankfort (Henri)**: Williams and Norgate limited, Great Britain, ١٩٥١.
- (٤) **Lods (A)**: Israel from its beginnings to the middle of the Eight century, London, ١٩٧٢.
- (٥) **Smith**: God and Man in early Israel.
- (٦) **Stade (B)**: Lehrbuch der hebraischen grammatik, Libzig, ١٩٧٩.
- (٧) **Wallhausen (J)**: Die biblischen Altertümer.
- (٨) History of the World, the Outline of History, Vol ٤ .

فهرس

4	مفتتح
5	الباب الأول – سفر التكوين السومري
52	الباب الثاني – سفر التكوين البابلي
88	الباب الثالث – سفر التكوين التوراتي
147	المصادر